

سُورَةُ طه

حِينَ يُنَادِي اللَّهُ الْخَائِفِينَ مِنْ وَرَاءِ الْوَادِي

تَأْمَلَاتُ تَدْبِيرِيَّةً فِي أَنْسِ الْمُنَاجَاةِ وَسَكِينَةِ الْعِنَايَةِ

رَدَّادُ السَّلَامِي

سُورَةُ طه

حين يُنادي اللهُ الخائفين من وراءِ الوادي
رحلةً في

أنس المناجاة، وتربية الرسالة، وسكينة
العناية

رداد السلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة منهجية

السورة التي تمسح عن قلب الرسالة تعب الطريق

ليست سورة طه سرًا لحياة موسى عليه السلام، ولا ترتيبًا زمنيًا لمشاهد دعوته، وإنما هي رحلة في صناعة القلب الذي يحمل الوحي: كيف ينتشل الله قلبًا خائفًا من وحشة الصحراء، ثم يغمسه في أنس المناجاة، ويخلع عنه ضعف الاعتماد على الأسباب، ويملؤه من يقين المعية، ثم يرسله إلى أعتى طاغية في الأرض وهو لا يملك إلا عصا ورسالة.

إنها سورة العناية الخفية؛ العناية التي لا تأتي دائمًا في صورة معجزة مدوية، بل قد تتسلل إلى الحياة في هيئة تابوت صغير يطفو على الماء، أو أخت تمشي من بعيد، أو أم يرد الله إليها رضيعها كي تقر عينها، أو نار يلمحها مسافر في ليلة باردة، فإذا بها موعد اصطفائه، أو عصا يابسة تصبح آية تقوض سلطانًا كاملاً.

في هذه السورة نرى الإنسان حين يختار لنفسه طريقًا، ثم يكتشف أن الله كان يسوقه منذ البدء إلى طريق آخر أعظم. خرج موسى يلتمس قبسًا لأهله، فعاد يحمل نورًا للأمة. قصد

النار ليدفأ، فاشتعل في قلبه نور الرسالة. كان يبحث عن هداية الطريق في الصحراء، فإذا به يُختار لهداية البشرية من صحراء الطغيان.

وتبدأ السورة بخطاب التنبيه لمحمد ﷺ:

﴿طه﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ

كأن قصة موسى كلها تأتي بعد هذه الآية جوابًا حيًا عنها: يا محمد، إنك لست متروكًا في الطريق. هذا الوحي الذي تحمله ليس بابًا إلى الشقاء، وإن أثقلتك أمانته، وآلمك إعراض قومك، وأضناك الحرص عليهم. انظر إلى أخيك موسى: كيف خرج خائفًا، وعاد رسولًا؛ وكيف دخل على فرعون وحيدًا في الظاهر، محاطًا بالمعية في الحقيقة؛ وكيف وقف البحر أمامه والعدو خلفه، فلم يكن البحر سدًا حين كان الله معه.

سورة طه لا تعد حامل الرسالة بطريق خالٍ من الألم، لكنها تمنحه ما هو أعظم: قلبًا لا يهزمه الألم. لا تقول له إنك لن تخاف، بل تعلّمه إلى من يحمل خوفه. ولا تقول له إنك لن تضعف، بل تكشف له اليد التي ستشدد عضده. ولا تقول له إن الطريق لن يطول، بل تريه كيف يصبح طول الطريق عبادة حين يكون السير إلى الله.

وسنسير في هذه السورة عبر مشاهدتها الحية: من خطاب الرحمة في مطلعها، إلى نار الوادي المقدس، ومن رعشة الاصطفاء إلى دفء الدعاء، ومن قصر فرعون إلى ساحة السحرة، ومن انشقاق البحر إلى فتنة العجل، ومن ألم موسى وغضبه إلى رحمة الله بآدم، ثم إلى الخاتمة التي تعيد قلب النبي ﷺ إلى محراب التسبيح والصبر والرضا.

إنها سورة تبدأ بنفي الشقاء، وتنتهي بتعليم القلب كيف يصبر حتى يلقي الرضا:

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا... لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾

وبين ﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ و﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ تمتد السورة كلها؛ طريقاً من ثقل الرسالة إلى سكينه الرضا، ومن وحشة التكليف إلى أنس القرب، ومن خوف الإنسان إلى أمان المعية.

المشهد الأول

ما أنزل القرآن ليُشقيك

حين يربّت الوحي على قلب النبي ﷺ

﴿طه﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿١﴾ إِلَّا تَذِكْرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿٢﴾

ما أرقّ هذا المطلع، وما أعظم الرحمة المضمرة فيه!

كان النبي ﷺ يحمل همّ الناس في قلبه حتى يكاد قلبه يتصدع من إعراضهم. لم يكن مبلغًا باردًا يلقي الكلمة ثم يمضي؛ كان يرى وراء كل وجه معرض روحًا تهوي إلى الشقاء، وكان يرجو أن ينتشلها قبل أن يفوت الأوان. ولذلك كان عنادهم يدخل إلى نفسه ألمًا، وتكذيبهم يمر على قلبه جرحًا.

فجاء القرآن يخاطبه من أعلى، لا خطاب عتاب مجرد، بل خطاب رحمة تعرف مقدار ما يعانيه قلبه:

﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾.

لم ينزل القرآن ليكون حجرًا على صدرك، ولا ليجعلك تذوب أسفًا على من أغلقوا قلوبهم، ولا لتكأف نفسك ما لم يكأفك

الله. لقد أنزل لتبْلَغ، وتهدي، وتذكّر؛ أما فتح القلوب فليس إليك، وأما إنبات البذور في أرواح الناس فذلك شأن رب القلوب.

كم يحتاج أصحاب الرسالات إلى هذه الآية! فربما اختلط الإخلاص عندهم باستنزاف النفس، وظنوا أن صدقهم يوجب عليهم أن يحملوا نتائج الدعوة كما يحملون واجبها. فيؤلمهم ألا يستجيب الناس، ويحسبون كل إعراض إخفاقاً شخصياً، وينسون أن الزارع مأمور بأن يبذر، لا أن يأمر الأرض بالإنبات.

القرآن لا يصنع في الإنسان بروداً تجاه الخلق، ولكنه يضع رحمته بهم في موضعها الصحيح. تحزن، ولكن لا تنكسر. تبذل، ولكن لا تعبد النتائج. تدعو، ولكن لا تنقص سلطان الهداية. تطرق القلوب بالكلمة، ثم تترك لله سر فتحها.

﴿إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾.

التذكرة لا تخلق الحقيقة في النفس من عدم، وإنما توقظ حقيقة نامت فيها. كأن الفطرة تعرف الطريق، لكن غبار الحياة تراكم على علاماته؛ فيأتي القرآن لا ليزرع في الروح شيئاً غريباً عنها، بل ليعيد إليها ذاكرتها الأولى، حين عرفت ربها قبل أن تضلها الأصوات والمطامع والشهوات.

غير أن الذي ينتفع بالتذكير هو من بقي في قلبه موضع للخشية. والخشية ليست رعباً أجوف، بل حياة باطنة تجعل الإنسان قابلاً لأن يتأثر بالحق. إن القلب الذي لا يخشى يصبح كالصخر المصمت: تمر به الآيات فلا تدخل، وتلمع أمامه البراهين فلا يرى، ويطرق الوحي بابه فلا يسمع؛ لا لخفاء الحق، بل لأن الكبر قد ملأ البيت كله فلم يترك للنور مكاناً.

أما القلب الذي يخشى، فربما تكفيه آية واحدة ليعود. يسمعها فتسقط المسافات التي صنعها بينه وبين ربه، ويشعر أن الخطاب كان ينتظره منذ أعوام. فالقرآن لا تُقاس فاعليته بعدد الكلمات، بل بمقدار حياة القلب الذي يستقبله. ورب كلمة قصيرة فتحت في الروح سماءً لا تغلق.

من الأرض إلى السماوات العلى

﴿تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ۝ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۝ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾

يرفع القرآن بصر النبي ﷺ من ضيق موقف المكذبين إلى سعة الملك كله. فهو لاء الذين أعرضوا ليسوا نهاية المشهد، ومكة التي ضاقت بالدعوة ليست حدود الوجود. إن الذي

أنزل هذا القرآن هو الذي خلق الأرض والسموات العلى؛
فلا يجوز أن يُوزن كلامه باستجابة جماعة من الناس أو
إعراضهم.

ما أضيّق الحاضر حين ننظر إليه وحده، وما أفسحه حين
نراه داخل ملك الله!

حين يشتد عليك الواقع، قد يبدو الباطل كأنه يملك الساحة
كلها، لكن السورة تعيد رسم المشهد: السموات لله، والأرض
لله، وما بينهما لله، وما تحت طبقات الثرى لله. فأين يختبئ
سلطان من سلطانه؟ وأين يقيم ملك خارج ملكه؟ وأين
تستطيع قوة أن تتحرك إلا في المساحة التي أذن الله لها أن
تتحرك فيها؟

ثم يجيء الاسم الذي يسكب على جلال الملك دفء الرحمة:
﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾.

هو سبحانه الرحمن، المستوي على عرشه استواءً يليق
بجلاله، منزهاً عن مشابهة خلقه؛ **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾**. إن
الملك كله واقع تحت سلطان الرحمن، وتدبير الكون صادر
عن رحمة لا يحيط العباد بحكمتها. وقد تمر بنا الأقدار خشنة
الملمس، لكن اليد التي تدبرها يد الرحمة والحكمة؛ وقد لا

نفهم الطريق حين نسير فيه، ثم نلتفت في آخره فنرى أن المنع كان حراسة، وأن التأخير كان إعداداً، وأن الوادي الموحش كان أقصر طريق إلى النداء.

وسوف نرى ذلك في قصة موسى: طفل يُلقى في اليم، وغريب يفر من المدينة، وراعٍ يمضي سنوات بعيداً عن وطنه، ومسافر تائه في الليل؛ وكل مشهد يبدو، إذا عُزل عما بعده، محنة مكتملة. لكن حين تجمع الخيوط، ترى أن الرحمن كان ينسج منها رداء النبوة.

ما تحت الثرى لا يغيب عنه؛ فكيف يغيب عنه وجع مدفون في صدرك؟

وما في السماوات والأرض ملكه؛ فكيف يكون أمرك خارج تدبيره؟

وهو الرحمن؛ فكيف تظن أن ما ساقه إليك خالٍ من الرحمة، وإن خفي وجهها عنك حيناً؟

السر الذي لا يحتاج إلى صوت

﴿وَإِنْ تَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ ○ الله لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿

يعلم السر، ويعلم ما هو أخفى من السر: الخاطر قبل أن يكتمل، والحزن قبل أن يجد له اسمًا، والدعاء قبل أن تصوغه الشفتان، والدمعة قبل أن تبلغ العين.

هناك أوجاع لا يستطيع الإنسان أن يحكيها، لا لأنه لا يريد، بل لأنها أعمق من العبارة. كلما حاول وصفها أحس أن الكلمات تقف على شاطئها ولا تقدر أن تعبر. ولكن الله لا يحتاج إلى شرح كي يفهمك؛ إنه يعلم ارتجافة المعنى في أعماقك قبل أن يتحول إلى كلام.

وهذه المعرفة ليست علم مراقبة مجردًا يبعث الخوف وحده، بل علم قرب يورث الأُنس: أنت لست مضطرًا أمام الله إلى أن تكون خطيئًا. لا تحتاج إلى ترتيب فصاحتك، ولا إلى تزيين انكسارك. يكفي أن تقف بصدق؛ فإن الذي يعلم السر وأخفى يعرف ما جئت به، وما عجزت عن حمله، وما كنت ترجوه ولم تحسن طلبه.

ولهذا سيأتي موسى إلى الوادي بقلب مزدحم: غربة، وخوف قديم، وذكريات مدينة خرج منها يترقب، وقلق على أهله في ليلة الصحراء. لكنه قبل أن يقول شيئًا سيجد أن الله يعرفه باسمه:

﴿يَا مُوسَى﴾

ما أدفأ أن يناديك من يعلم سرك باسمك!

وتُختم هذه المقدمة بالحقيقة التي يعود إليها كل شيء:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾.

له الأسماء الحسنَى؛ ولذلك لا يكون في تدبيره عبث، ولا في حكمه ظلم، ولا في رحمته نقص، ولا في علمه غياب. وكل اسم من أسمائه نافذة يدخل منها اليقين إلى القلب: فإذا خفت تذكرت الحفيظ، وإذا ضعت تذكرت الهادي، وإذا انكسرت تذكرت الجبار، وإذا أذنبت تذكرت الغفور، وإذا أظلمت بك الأسباب تذكرت النور، وإذا حسبت أنك منسي تذكرت من يعلم السر وأخفى.

وبعد أن عرّفت السورة القلب برب موسى، بدأت تحكي له قصة موسى؛ لأن القصص القرآني لا يريدك أن تتشغل بالبطل عن ربه. إن أعظم حقيقة في القصة ليست عصا موسى، ولا انشقاق البحر، ولا هزيمة السحرة؛ بل الإله الذي اصطفاه، وكلمه، وحفظه، وقال له ولأخيه:

﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾.

المشهد الثاني

نارٌ في آخر الليل

حين خرج موسى يطلب قبساً فوجد النداء

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا
إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿٢﴾
﴿وَهَلْ أَتَاكَ﴾...﴾

إنه استفهام يفتح أبواب التشويق، لكنه يحمل في طياته أكثر من الحكاية. كأن الله يقول لنبيه ﷺ: هل أتاك خبر أخيك الذي سار في طريق يشبه طريقك؟ هل أتاك حديث قلب خاف كما خفت، وحمل رسالة ثقيلة كما حملت، وواجه طاغية مكذباً كما تواجه؟ تعال لترى كيف تصنع العناية رجالها، وكيف يكون الله مع أوليائه حين تضيق بهم المسالك.

كان الليل يحيط بموسى وأهله، وكانت الصحراء تمحو العلامات. بردٌ، وغربة، وطريق لا يظهر له اتجاه. ثم لمح ناراً من بعيد فقال: ﴿امْكُثُوا﴾. سأذهب، لعلي آتيكم منها بشيء من الدفء، أو أجد عندها من يدلنا على الطريق.

كانت حاجته صغيرة في ظنه: قبس من نار، أو كلمة هداية إلى الطريق. لكن الله كان يخبئ له وراء تلك النار ما هو أعظم من الدفء وأبعد من الطريق.

وهكذا تدخل الأقدار العظيمة إلى حياتنا أحيانًا من أبواب الحاجات البسيطة. نمضي وراء شيء نظنه شأنًا يوميًا، فإذا الله يقودنا به إلى منعطف يعيد تشكيل أعمارنا. موسى لم يخرج في تلك الليلة طالبًا النبوة؛ خرج يطلب نارًا. ولم يكن يعرف أن خطواته في الظلام معدودة نحو اللحظة التي من أجلها جرت طفولته في اليم، وعاش في قصر فرعون، وخرج إلى مدين، وأقام فيها سنين.

كل ماضيه كان يسير معه نحو تلك النار.

إن الله يعدّ الإنسان للمهمة قبل أن يخبره بها. يمرره بتجارب تبدو متفرقة، ثم يجمعها في لحظة واحدة؛ فيفهم لماذا ذاق الخوف، ولماذا عرف القصر، ولماذا عاش الغربة، ولماذا رعى الغنم، ولماذا تأخر الطريق.

لقد عرف موسى قصر فرعون من الداخل، وعرف حياة المستضعفين، وعرف معنى الهرب والوحدة، وتعلم في مدين صبر الراعي على ما يرعى؛ لأن من سيقود أمة مستعبدة يحتاج إلى قلب خبر الضعف، ونفس تمرنت على الصبر، وعين رأت الطغيان بلا أقنعة.

وحين قال لأهله: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾، كان في التعبير شيء من الأنس قبل الوصول. فالإنسان في الوحشة يستبشر بأدنى علامة للحياة. لكنه لم يكن يعلم أن الأنس الحقيقي لن يكون بالنار، بل بمن ناداه عندها.

ذهب يطلب قبسًا يحمل الدفء إلى أهله، فعاد يحمل وحيًا يبعث الحياة في أمة.

ذهب يبحث عن يهديه إلى الطريق، فاختاره الله ليهدي إلى الصراط.

ذهب وحده في ظلمة الصحراء، فعاد وفي قلبه نور لا تطفئه قصور فرعون ولا جموع السحرة.

كثيرًا ما نظن أننا تائهون لأننا لا نعرف إلى أين تسير بنا الحياة، بينما نكون في تلك اللحظة نفسها أقرب ما نكون إلى موعدنا. لم يكن ضياع الطريق في ليلة موسى خروجًا عن التدبير؛ كان هو الطريق إلى الوادي المقدس.

ربما تضيع منك جهة الأرض، لكي تجد جهة السماء.

النداء الذي غيّر كل شيء

﴿فَلَمَّا أَنَاثَا نُودِيَ يَا مُوسَى ﴿١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾

وصل موسى إلى النار، لكنه لم يجد عندها بشرًا يسألهم، بل سمع النداء الذي ستبقى رجفته في قلب التاريخ:

﴿يَا مُوسَى﴾.

في الصحراء التي لا يعرفه فيها أحد، ناداه رب العالمين باسمه. وفي اللحظة التي ظن أنه يبحث فيها عن الطريق، أخبره النداء أن الطريق كله كان يبحث عنه، وأن العناية التي حفظته رضيعًا لم تفارقه رجلاً.

﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾.

لم يبدأ النداء بالأمر الثقيل، ولا بمواجهة فرعون، ولا بأعباء الرسالة. بدأ بالتعريف الذي يهيئ القلب لكل شيء: أنا ربك.

أنا الذي رببتك حين لم تكن تعرف نفسك.

أنا الذي حفظتك في اليم حين لم تكن تستطيع الدفاع عن جسدك الصغير.

أنا الذي ألقى عليك محبة مني، فجعل قلب عدوك يلين لك وهو لا يدري.

أنا الذي رددتك إلى أمك، وأخرجتك من المدينة، وآويتك في مدين، وسقتك في هذه الليلة إلى الوادي.
إن الذي سيتولى مستقبل الرسالة هو نفسه الذي تولى ماضيك كله.

وهذا هو أساس السكينة: أن تعرف ربك قبل أن تعرف مهمتك. لأن التكليف إذا نُظر إليه وحده أثقل الظهر، أما إذا سبقته معرفة المكلف تحوّل ثقله إلى شرف، ووحشته إلى معية، ومخاوفه إلى أبواب للتوكل.

﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾.

إنك تدخل الآن حضرة الاصطفاء، وتقف في الوادي المقدس طوى. خفف عنك أثر الطريق، واستقبل النداء بكليتك. ثمة لحظات ينبغي للإنسان أن يخلع عند عتبتها شواغله، وضجيجه، وغروره، وحساباته القديمة؛ لأن القلب لا يدخل مقام المناجاة وهو مكتظ بأصوات الدنيا.

كم نقف بين يدي الله بأجسادنا، بينما تبقى أرواحنا منتعلة
بغبار الطريق! نحمل الأسواق إلى الصلاة، والخصومات
إلى التلاوة، والمخاوف إلى الدعاء، ثم نتساءل لماذا لا نتذوق
الأنس.

إن لنداء الله حرمة، وللوحي مهابة، وللقرب أدبًا. وليس
المقصود أن يعتزل المؤمن الحياة، بل أن يعرف أن في
حياته مواطن لا يليق أن يدخلها بقلب مبعثر. حين تقرأ كلام
الله، اخلع عن روحك ضجيجها. وحين تسجد، اترك على
باب السجود ألقابك ومكانتك وصراعاك مع الناس. ادخل كما
أنت: عبدًا محتاجًا يعرف أن كل ما فيه من الله.

كان الوادي صحراء كسائر الصحاري، لكنه صار مقدسًا
لأن خطاب الله تجلى فيه. فالأماكن لا تشرف بترابها وحده،
بل بما يقع فيها من الطاعة والقرب. وكذلك عمر الإنسان:
قد تمر أعوامه متشابهة، ثم تأتي لحظة صدق واحدة فتجعل
بقية العمر مهياً لمعنى جديد.

إنها لحظة موسى التي قسمت حياته قسمين: ما قبل النداء
وما بعده.

قبلها كان رجلاً صالحًا يبحث عن طريقه؛ وبعدها صار
رسولاً يحمل طريق أمة.

قبلها كان يخشى أن يراه فرعون؛ وبعدها صار مأمورًا أن يقف أمامه ويقول له كلمة الحق.

قبلها كان يحمل عصًا يتوكأ عليها؛ وبعدها صار يحمل يقينًا تتضاءل أمامه العصي والتيجان.

ولم يتغير موسى لأنه امتلك قوة بشرية جديدة، بل لأنه عرف المعرفة التي إذا استقرت في القلب أعادت ترتيب الكون كله:

﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾.

المشهد الثالث

وأنا اخترتك

حين يهبط الاصطفاء على قلبٍ لم يكن ينتظره

﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ۖ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾

﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ ...

أي رغبةٍ مرّت بقلب موسى حين سمعها؟

لم تكن النبوة حلمًا طارده، ولا منزلة نافس عليها، ولا مجداً بشرياً تسلق إليه؛ جاءه الاصطفاء وهو في طرف الصحراء، بعيداً عن عيون الناس، لا حاشية حوله ولا جمهور ينتظر كلمته. كان راعياً مسافراً يحمل عصاً، فجاءه النداء من السماء ليقول له إن موازين الله لا تشبه موازين البشر.

الناس يختارون من يلعب أمام أعينهم، والله قد يختار من ينضج في الخفاء.

الناس يلتفتون إلى من يملك أسباب القوة، والله يصنع بأمره القوة فيمن يشاء.

الناس تقيس الرجال بما صاروا إليه، والله يعلم البذرة قبل أن تنفتح، ويرى في العبد ما لا يراه العبد في نفسه.

﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾: أنا، لا القصر الذي نشأت فيه، ولا البيئة التي احتضنتك، ولا سنوات مدين التي آوتك، ولا خبرتك وحدها التي أهلتك. تلك كلها أسباب جرت بعنايتي، أما أصل الاصطفاء فمنحة مني.

وهذا يهدم في النفس غرور الإنجاز كما يهدم بأس الضعف. فلا المختار يحق له أن يتكبر؛ لأن الاختيار فضل، ولا المستضعف يحق له أن يحتقر ما أودع الله فيه؛ لأن الله قد يخبئ وراء ضعفه مهمة عظيمة.

لكن الاصطفاء ليس تاجاً يوضع على الرأس، بل أمانة تُلقى في القلب. ولذلك جاءت بعده مباشرة: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾.

أول زاد الرسالة: أن تحسن الاستماع.

قبل أن تتكلم للناس، استمع إلى رب الناس. وقبل أن تحمل الكلمة إلى العالم، دعها تهبط إلى أعماقك. لا يكفي أن تسمع الأذن؛ إنما المطلوب أن يستمع القلب بكليته، وأن يسكت ضجيج النفس حتى لا يختلط صوت الوحي بصوت الهوى.

إن أزمة كثير ممن يحملون المعاني أنهم يستعجلون الحديث قبل أن يكتمل الاستماع. يسمعون من الوحي ما يؤيد اندفاعهم، لا ما يصححهم؛ ويأخذون منه ما يواجهون به غيرهم، ولا يتركونه يواجه ما في نفوسهم. أما موسى، وهو في أول لحظة من لحظات التكليف، فيتلقى التربية الأولى: أنصت؛ فأنت لا تصنع الرسالة، وإنما تتلقاها.

ليس الرسول مالگًا للوحي، بل مأخوذًا به؛ ولا يحق لحامل الكلمة أن يعيد تشكيلها وفق مزاجه، لأنه مؤتمن عليها لا منشئ لها.

لا إله إلا أنا

الحقيقة التي تبدأ منها الرسالات كلها

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾

قبل مواجهة فرعون، يجب أن يتحرر القلب من كل فرعون خفي.

وقبل إنقاذ بني إسرائيل من عبودية الطاغية، يجب أن تقرر الرسالة أصل الحرية كلها: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾.

فالتوحيد ليس فكرة تجريدية تقيم في الذهن، وإنما هو تحرير شامل للإنسان. حين لا يكون في الوجود إله إلا الله، فلا أحد يستحق أن يستعبد قلبك، ولا أن يشتري ضميرك، ولا أن يجعل رزقك سلاحًا عليك، ولا أن يطلب منك طاعة تنازع حق الله.

فرعون لم يكن مجرد رجل قاسٍ يحكم مصر، بل كان ذروة انحراف الإنسان حين ينسى عبوديته، فيدّعي لنفسه حقًا من حقوق الربوبية. ولهذا لم يكن إسقاط فرعون يبدأ من القصر، بل من قلب موسى: أن يمتلئ بلا إله إلا الله حتى لا يبقى في نفسه مكان لهيئة زائفة.

من عرف الله على الحقيقة، رأى طغاة الأرض في حجمهم الحقيقي: بشرًا ضعفاء، يعيشون في ملك الله، ويتنفسون من هوائه، ويتقلبون في نعمته، ثم ينازعونه أمره وهم عاجزون عن رد المرض عن أجسادهم أو منع الموت عن أبوابهم.

ولأن التوحيد ليس عبارة تُقال ثم تنفصل عن الحياة، جاء أثره المباشر: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾.

فكل معرفة لا تنتهي إلى عبادة تبقى معرفة ناقصة. والتوحيد الذي لا يعيد ترتيب الحب والخوف والرجاء والطاعة داخل النفس قد مر باللسان ولم يستقر بعد في القلب.

اعبدني وحدي: اجعلني وجهتك حين تتفرق الوجهات، وغايتك حين تتزاحم الغايات، ومرجعك حين تختلف الأصوات. لا تجعل طاعة الناس فوق طاعتي، ولا رضاهم قبل رضاي، ولا الخوف منهم أكبر من خوفك مني.

وأقم الصلاة لذكري

المحراب الذي يُصنع فيه رجال المواجهة

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾

لم يأمره الله بالذهاب إلى فرعون قبل أن يدلّه على موضع القوة: الصلاة.

فالمواجهة مع الطغيان لا تبدأ في القصور، بل في المحاريب. والقلب الذي سيقف ثابتاً أمام فرعون يجب أن يتعلم أولاً كيف يقف خاشعاً أمام الله. ومن لم يضع جبهته لله قد يضعها، من حيث لا يشعر، لقوة من قوى الأرض.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾: لأن الطريق طويل، والعدو قوي، والنفس تضعف، والأحداث تثير الغبار على مرآة اليقين. فتأتي الصلاة لا باعتبارها توقعًا عن الرسالة، بل عودة إلى منبعها؛ لا هروبًا من المعركة، بل استمدادًا للقوة التي تخوض بها المعركة.

في الصلاة يتذكر موسى أن فرعون ليس ربًّا، وأن القصر ليس كونهًا، وأن السحرة لا يملكون الحق، وأن البحر لا يعجز خالقه. في الصلاة تسقط الأسماء التي يرهبها الناس، ويبقى اسم الله عاليًا في القلب.

ولذلك كان الذكر حماية من الاستلاب. فالطاغية يريد أن يملأ وعي خصومه بحضوره؛ يريدهم أن يفكروا في قوته ليلاً ونهارًا، حتى يكبر في صدورهم ويصغروا أمامه. أما الصلاة فتعيد ملء القلب بالله، فإذا امتلأ به تقلصت في داخله أشباح القوة الزائفة.

كلما أرهقك الطريق، عُدْ إلى الصلاة.
كلما تفرقت نفسك في وجوه الحياة، اجمعها بين يدي الله.
كلما خفت من القادم، قف أمام من يملك القادم.
فالصلاة ليست واجبًا على هامش العمر، بل هي الموضع الذي يسترد فيه العمر معناه.

المشهد الرابع

إنها آتية

الساعة التي تمنح الحياة ميزانها

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ۖ
فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾

بعد التوحيد والصلاة يأتي اليقين بالآخرة؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يحمل رسالة الحق في وجه الباطل ما لم يكن يرى أبعد من حدود الدنيا.

من ظن أن هذه الحياة هي المشهد كله، رأى فرعون منتصرًا: يملك القصور والجنود والذهب، ويقتل من يشاء ويستحيي من يشاء. أما من آمن بالساعة، فإنه يرى صورة أخرى لم تكتمل بعد؛ يرى أن الطغاة لم يفلتوا، وأن دموع المظلومين لم تضيع، وأن كل خطوة سُجلت، وكل صرخة سُمعت، وكل نفس ستجزي بما تسعى.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾.

ليست احتمالاً فلسفياً، ولا فكرة تُترك للجدل؛ إنها آتية. هذا التعبير يضع المستقبل في قوة الحاضر، حتى يشعر المؤمن أن الآخرة ليست بعيدة، وإنما نحن الذين نسير إليها مع كل نفس.

وُخفي موعدها لتظل الحياة ميداناً صادقاً للامتحان. لو عرف الإنسان متى تأتي ساعته، لأجل توبته إلى حافتها، ولتحولت الطاعة عند كثيرين إلى تدبير نفعي لا إلى عبودية صادقة. لكن خفاء الموعد يجعل كل لحظة قابلة لأن تكون الأخيرة، ويوقظ القلب من عادة التسويف.

﴿التَّجَزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾.

لم يقل: بما تتمنى، ولا بما تدعي، ولا بالصورة التي رسمتها لنفسها أمام الناس؛ بل بما تسعى. فالسعي هو الحقيقة المتحركة للإنسان. قد تجميل العبارات نياتنا، لكن الطريق الذي تمشي فيه أقدامنا يكشف الوجهة الفعلية لقلوبنا.

والله لا يضيع السعي وإن خفي عن الخلق. قد تكتب كلمة لا يلتفت إليها أحد، لكنها كانت عند الله صادقة. وقد تمنع ظلاً ولا يعلم بك الناس. وقد تكتُم ألماً اتقاءً لأن تؤذي بريئاً. وقد تحارب هوى في داخلك لا يرى معركته سواك. كل ذلك داخل في ميزان لا يسقط منه شيء.

إن هذه الآية تخلص الإنسان من عبودية النتائج. الجزاء على السعي الصادق، لا على امتلاك الثمرة. قد يدعو الرسول فلا يؤمن قومه، لكنه أدى. وقد يعمل المصلح فلا يرى في حياته اكتمال الإصلاح، لكنه سعى. وقد يغرس المؤمن شجرة يموت قبل أن يستظل بها، لكنها تنمو في سجل عمله وإن غاب جسده.

ثم يأتي التحذير:

﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾.

إن إنكار الآخرة ليس دائماً نتيجة نقص في الدليل؛ كثيراً ما يكون للهوى يد خفية فيه. فالآخرة تعني الحساب، والحساب يضع حدوداً للرغبة، والهوى يريد حياة بلا حدود ولا مساءلة. ولذلك قد يرفض الإنسان الحقيقة لا لأنها غامضة، بل لأنها تحاسبه.

وما أكثر الذين لا يقولون بالسنتهم إنهم ينكرون الآخرة، لكنهم يعيشون كأنها غير آتية! يقدمون المكسب العاجل على الحق، ويظلمون لأن العقوبة لم تحضر فوراً، ويبيعون ضمائرهم لأن السوق يدفع أكثر من المبدأ.

هؤلاء قد يصدّون المؤمن عن يقينه، لا بالحجة وحدها، بل
بضغط النموذج: حين يرى باطلهم مزدهرًا وحقه متعبًا،
فيوشك أن يعيد النظر في الطريق. فتأتي الآية لتثبته: لا تدع
نجاحًا مؤقتًا يبدل ميزانك؛ إن القصة لم تنتهِ بعد.

المشهد الخامس

وما تلك بيمينك يا موسى؟

السؤال الذي يردُّ القلب من رهبة النداء إلى أنس المناجاة

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ (١) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾

يعلم الله ما بيمين موسى، ويعلم عصاه قبل أن يحملها، لكنه سبحانه يسأله؛ لا سؤال من يجهل، تعالى الله عن ذلك، بل سؤال تهيئة وموانسة، وسوق للنفس إلى مشاهدة التحول الذي سيقع أمامها.

بعد مهابة: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾، يأتي الخطاب اللطيف: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾.

كأن النداء يفتح لموسى مساحة للكلام بعد أن غمرته جلالات الموقف. فيجيب، ولا يكتفي بقوله: هي عصاي، بل يسترسل:

﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾.

وما أجمل القلب حين يأنس بمناجاة ربه، فيطيل الحديث وإن كان الجواب يمكن أن يختصر في كلمتين! إنها لحظة أنس العبد الذي وجد باب القرب مفتوحًا، فصار يذكر التفاصيل الصغيرة: أتوكأ عليها، وأهش بها على غنمي، ولي فيها حاجات أخرى.

هذه العصا تختصر حياة موسى الماضية: عصا راع، وأداة سفر، ورفيقة طريق، وشيء اعتاد أن يستند إليه. إنها السبب الصغير المألوف الذي تألفه يده ويطمئن إليه جسده.

وسوف يريه الله أن ما يظنه مجرد عصًا يمكن بأمر الله أن يصبح آية. لا لأن في الخشب قوة خفية، بل لأن الأشياء كلها جنود لأمره. فالذي جعل النار تحرق يستطيع أن يجعلها باردًا وسلامًا، والذي جعل البحر سائلًا يستطيع أن يجعله طرْقًا يابسًا، والذي جعل العصا جمادًا يستطيع أن يقلبها حيّة تسعى.

إن السؤال يلفت موسى إلى عصاه قبل تحولها، ليعرفها معرفة يقينية؛ حتى لا يختلط عليه الأمر حين يراها في صورة أخرى. هذه عصاك نفسها التي تعرفها، لم تتغير مادتها بقدرتك، وإنما ظهر عليها سلطان الأمر الإلهي.

وفي السؤال تربية أخرى: انظر إلى ما في يدك.

فقد يظن الإنسان أن مهمته الكبرى تحتاج إلى أدوات بعيدة لا يملكها، بينما يفتح الله له باب الأثر بشيء حاضر بين يديه. لم يُعط موسى سيفًا ولا جيشًا ولا ثروة؛ كانت في يده عصًا. لكن القضية ليست ضخامة ما في يدك، بل المعية التي توجهه.

الكلمة الصادقة قد تكون عصاك.
القلم الأمين قد يكون عصاك.
الصبر الطويل قد يكون عصاك.
الموهبة الصغيرة التي تحتقرها قد يجعل الله فيها أثرًا يتجاوز حساباتك.

لا تسأل أولًا: ماذا ينقصني؟
انظر إلى ما وضعه الله في يمينك، ثم اسأله كيف تعبده به.

ألقها يا موسى

﴿قَالَ أَلْقَهَا يَا مُوسَى﴾ ۞ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ۝ قَالَ
خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾

﴿أَلْقَهَا﴾.

ألق ما اعتدت أن تتوكأ عليه. اترك للحظة سببك المألوف،
لترى أن الذي كان يحمل السبب هو الله، وأن العصا لا
تمنحك الأمان من ذاتها.

فألقاها موسى؛ وهذه أول استجابة عملية بعد الاصطفاء. لم
يجادل، ولم يسأل ماذا سيحدث، ولم يتمسك بما اعتادت يده.
ألقى عصاه امتثالاً، فإذا هي حية تسعى.

هنا تحوّل المألوف إلى مهيب، وما كان موضع اتكاء صار
موضع خوف. فالإنسان يخاف حين تسقط الحدود التي ألفها
بين الأشياء؛ حين لا تعود العصا عصاً، ولا تجري قوانين
المألوف كما عرفها.

لكن النداء جاءه سريعاً: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾.

ليس المطلوب من موسى ألا يشعر بالخوف أبدًا؛ فالخوف انفعال بشري. المطلوب ألا يمنعه الخوف من الامتثال. الشجاعة ليست غياب الخوف، بل أن تتحرك بأمر الله مع وجوده، وأن تكون ثقتك بمن أمرك أعظم من رهبتك مما ترى.

﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾.

خذها؛ فالأمر الذي نقلها من حال إلى حال قادر على إعادتها. لا شيء يخرج عن سلطان الله حين يتغير، ولا شيء يعجزه حين يعيده. والمشهد كله إعداد لموسى: ستدخل عالمًا تنقلب فيه الموازين، وسترى سلطانًا متضخمًا وسحرًا يهول الأبصار، فلا تجعل الصورة الظاهرة نهاية فهمك. الذي قلب العصا حية قادر أن يقلب الضعف قوة، والخوف ثباتًا، والسحرة مؤمنين، والبحر طريقًا، وعرش فرعون غرقًا.

كان على موسى أن يتعلم في الوادي أن قدرة الله لا تحدها طبائع الأشياء، قبل أن يرى هذه الحقيقة تمتد في ميدان المواجهة.

آية أخرى

﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ۝ لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾

اليَد التي كانت تحمل العصا ستخرج بيضاء مضيئة من غير مرض ولا أذى. يفيض النور من الجسد الذي كان قبل قليل يرتجف أمام الحية؛ كأن الله يقول له: لا تنظر إلى نفسك بعين ماضيك، فقد جعلت في يدك آية، وفي عصاك آية، ومنحتك من البرهان ما تواجه به الزيف.

﴿لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾.

قبل أن يُري موسى فرعونَ الآيات، أراه الله إياها. وهذا من رحمة التربية: أن يسبق اليقينُ المواجهة. فالداعية لا يستطيع أن يحمل للناس حقيقة لا تسكن قلبه، ولا أن يقاوم الوهم ببرهان لم يره في بصيرته.

لم تكن الآيات أدوات عرض يستعرض بها موسى مكانته، بل شواهد على أن القوة التي أرسلته ليست قوته. كل معجزة كانت تقول له قبل أن تقول لفرعون: لست وحدك.

إن الله لم يطلب من موسى أن يصنع الآية، وإنما أن يحملها.
ولم يطلب منه أن يضمن النتيجة، وإنما أن يذهب. وهنا
يستريح القلب من العبء الذي ليس له: عليك صدق البلاغ،
أما سلطان التحويل فله.

المشهد السادس

اذهب إلى فرعون إنه طغى

حين تتحول المناجاة إلى رسالة

﴿اذهبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾

ها هي المهمة تظهر أخيرًا في جملة قصيرة تحمل وراءها
جبلاً من الذكريات:

اذهب إلى فرعون.

إلى الرجل الذي تربى موسى في قصره، وإلى النظام الذي
قتل أبناء بني إسرائيل، وإلى المدينة التي خرج منها موسى
خائفًا يترقب. اذهب إلى الموضع الذي يحمل في نفسك ذاكرة
الخطر، ولا تذهب لتختبئ هذه المرة، بل لتتكلم.

ما أشد وقع الاسم على قلب موسى! لقد كان يستطيع أن
يواجه رجلاً غريبًا لا تاريخ له معه، لكن التكليف أعاده إلى
مكان الجرح نفسه. وكثيرًا ما يكون تمام الشفاء أن يعيدك
الله قويًا بالحق إلى الموضع الذي خرجت منه منكسرًا.

﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾

والطغيان مجاوزة للحد؛ يبدأ حين ينسى الإنسان أنه عبد، ثم يظن أن ما بين يديه من قوة يمنحه حقًا فوق الحق. المال قد يطغى، والسلطة قد تطغى، والمعرفة قد تطغى، والجماعة قد تطغى؛ وكل نعمة انفصلت في وعي صاحبها عن المنعم يمكن أن تصبح سلمًا إلى الطغيان.

كان فرعون يملك دولة وجندًا وأجهزة تخويف، وكان موسى يحمل عصًا وكلمة. وفي ميزان المادة يبدو اللقاء محسومًا قبل أن يبدأ. لكن السورة تعلمنا أن القوة لا تُقاس بما يظهر في يد الإنسان وحده، بل بمن يقف وراءه.

الطاغية يملك أدوات السيطرة على الأجساد، أما الوحي فيخاطب النقطة التي لا يستطيع الطاغية بلوغها إلا إذا سلّمها صاحبها: الضمير.

إنه يملك أن يسجنك، لكنه لا يملك أن يجعل الباطل حقًا في قلبك.

يملك أن يهددك، لكنه لا يملك أن ينتزع يقينك إلا إذا تنازلت عنه.

يملك المنبر والسطح والجند، لكن كلمة واحدة من الحق قد تبدأ في تقويض مملكته من الداخل.

غير أن موسى، وهو يسمع الأمر، لم يتظاهر بقوة لا يشعر بها، ولم يدفن مخاوفه خلف لغة البطولة. رفع ضعفه إلى الله؛ لأن الأنبياء لا يواجهون هشاشتهم بالإنكار، بل بالدعاء.

المشهد السابع

رب اشرح لي صدري

أعظم دعاء قبل مواجهة المستحيل

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۝ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ۝ يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾

لم يقل موسى: يا رب، أهلك فرعون قبل أن أصل إليه.
ولم يقل: أعطني جيشًا أكبر من جيشه.
ولم يبدأ بتغيير الخارج؛ بدأ بصدره.

﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾.

فالمهمة العظيمة تحتاج قبل اتساع الأدوات إلى اتساع الصدر. إذا ضاق صدر الإنسان، تحولت العقبات الصغيرة في عينه إلى جبال، وإذا شرحه الله رأى في الجبال طرقًا.

شرح الصدر أن يفسح الله في روحك موضعًا للتكليف؛ فلا تختنق به، ولا يطغى الخوف على يقينك، ولا يحاصرك ألم الماضي حين تدخل المستقبل. هو سكينه لا تلغي ثقل المهمة، لكنها تجعل القلب أوسع من ثقلها.

طلب موسى شرح الصدر قبل تيسير الأمر؛ لأن الأمر قد يتيسر في الخارج ويبقى الإنسان عاجزاً عنه من الداخل. وقد تتوافر له الفرص، لكن نفسه تضيق بها؛ وقد تفتح له الأبواب، لكنه لا يملك شجاعة العبور.

كم من إنسان يطلب تغيير ظروفه، بينما حاجته الأولى أن يغيّر الله اتساع قلبه! فبعض الأقدار لا تحتاج أن تصغر، بل تحتاج صدورنا أن تكبر بالإيمان حتى تتسع لها.

﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾.

قال: أمري، مع أنه أمر الله؛ لأنه حين قبله صار مسؤوليته. وهذه منزلة الأمانة: أن يحمل الإنسان التكليف كأنه شأنه الذي يعيش له، لا مهمة مفروضة يؤديها ببرود.

والتيسير ليس أن يخلو الطريق من الشدة؛ فقد ذهب موسى إلى فرعون، وواجه السحرة، وخرج ببني إسرائيل ليلاً، ولحقه العدو. لكن التيسير أن يهيئ الله لك في كل شدة باباً، وفي كل مأزق هداية، وفي كل ضعف مدداً.

ربما كان تيسير الأمر أن يمنحك صبراً لا أن يزيل الانتظار، وأن يرزقك كلمة صادقة لا أن يصمت خصمك، وأن يريك خطوة واحدة من الطريق لا الطريق كله.

﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ۖ يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾.

لم يطلب موسى جمال العبارة طلبًا للإعجاب، بل طلب وضوحها طلبًا للهداية. لم يقل: ليعجبوا بقولي، بل: ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾.

وهذا هو الفارق بين من يتكلم ليُرى، ومن يتكلم ليصل الحق. الأول يهتم بصورة العبارة في أعين الناس، والثاني يهتم بوصول المعنى إلى قلوبهم. البلاغة في ميزان الرسالة ليست زخرفة تحجب الحقيقة، بل جسرًا أمينًا يحملها إلى الفهم.

لقد عرف موسى موضع ضعفه فسمّاه، ولم يمنعه الاصطفاء من الاعتراف بحاجته. الإيمان لا يجعل الإنسان يتوهم الكمال؛ بل يمنحه شجاعة أن يرى نقصه دون أن يحتقر نفسه، وأن يسأل الله إصلاحه دون أن يعتذر به عن أداء واجبه.

واجعل لي وزيرًا من أهلي

الرسالة التي لا تحتقر قوة الأخوة

﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ۖ هَارُونَ أَخِي ۖ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۖ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾

لم يطلب موسى صاحبًا يصفق له، بل أخًا يشد أزره.

كان يعرف أن الطريق يستهلك القلب، وأن صاحب الرسالة يحتاج إلى من يذكره إذا نسي، ويقويه إذا ضعف، ويحمل معه حين يثقل الحمل. فالاستعانة بالأخ الصادق ليست نقصًا في التوكل، بل من تمام معرفة الإنسان بحدوده.

﴿هَارُونَ أَخِي﴾.

كم في هذه الكلمة من دفء! وسط رهبة التكليف وذكر فرعون والطغيان، يتذكر موسى أخاه. إن الرسائل الكبرى لا تلغي الحاجات الإنسانية النبيلة؛ بل تجعل المحبة نفسها جزءًا من قوتها.

ثم لم يطلب هارون لمجرد أن يؤنسه، بل قال:

﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ○ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾.

فالأخ الحق هو الذي تزداد به قدرة الإنسان على الطاعة، لا الذي يزداد به غروره. وهو الذي يحمل معك أمانة الطريق، لا الذي يكتفي بالقرب منك حين تكون لك المكانة.

ويعلمنا موسى أن صاحب المشروع النبيل لا يخشى الشريك المخلص، ولا يرى نجاح أخيه انتقاصاً من وجوده. لقد طلب أن يُشرك هارون في النبوة، وهي أعظم منزلة، لأن غايته لم تكن أن ينفرد بالمجد، بل أن يتم أمر الله على أكمل وجه.

إن حب التفرد قد يتنكر في لباس الغيرة على الرسالة. يريد المرء أن يكون هو المتحدث الوحيد، والوجه الوحيد، والاسم الذي يعود إليه الفضل كله. أما موسى، فكان صادقاً في غايته، ولذلك طلب من يعضده ولو شاركه شرف المهمة.

القضية ليست: من يُذكر؟

بل: هل يبلغ الحق؟

كي نسبحك كثيراً

﴿كَيُّ نُسَبِّحُكَ كَثِيرًا ۖ وَنَذْكُرُكَ كَثِيرًا ۝ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾

هنا يكشف موسى الغاية العميقة من طلبه للمعين: ليست مواجهة فرعون وحدها، ولا تحرير بني إسرائيل وحده، بل أن يكون الاجتماع عوناً على كثرة التسبيح والذكر.

﴿كَيُّ نُسَبِّحُكَ كَثِيرًا ۖ وَنَذْكُرُكَ كَثِيرًا﴾.

فالصحبة الصالحة ليست مجرد دفء اجتماعي؛ إنها يد تردك إلى الله كلما أخذتك الطريق بعيدًا. والأخ المبارك هو الذي إذا صحبتَه اتسع في يومك موضع الذكر، وإذا تحدثت معه ازداد الله حضورًا في قلبك، وإذا ضعفت أمام التكليف ذكرك بمن كلفك.

ولم يقل موسى: كي نهزم فرعون سريعًا، مع أن ذلك من مقاصد بعثته؛ لأن النصر الخارجي ثمرة، أما الأصل فهو أن يبقى القلب موصولًا بالله. فقد يسقط طاغية ويولد في قلوب المنتصرين طغيان جديد، إذا لم يطهرها الذكر.

الغاية ليست أن تنتقل القوة من يد إلى يد، بل أن يعود الإنسان عبدًا لله. والذكر هو الحارس الذي يمنع صاحب الحق من أن يتحول، بعد انتصاره، إلى نسخة أخرى ممن قاومهم.

﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾.

كنت ترى ضعفنا قبل أن نصفه، وتعرف حاجتنا قبل أن نسألك، وترى موسى وهارون في جميع أطوار حياتهما. والبصير لا يختار عباده عن غفلة، ولا يرسلهم دون علم بمواطن ضعفهم، ولا يكلفهم ثم يتركهم.

إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا؛ ولذلك جرؤنا أن نطلب. فأنت تعرف أن طلب العون ليس فرارًا من التكليف، بل استعداد له؛ وأن الخوف الذي في الصدر لن يمنعنا من الذهاب إذا كنت معنا.

قد أُوتيت سؤالك يا موسى

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾

ما أسرع الإجابة، وما أذفا العبارة!

لم يقل: سننظر في أمرك.
ولم يتركه في قلق الانتظار.
بل جاءه الجواب كاملاً:

﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾.

سأل شرح الصدر، وتيسير الأمر، وحل عقدة اللسان، وشد الأزر بأخيه؛ فأعطي سؤاله.

لكن عطاء الله لا يعني أن الطريق سيخلو من الشدة. سيقف موسى أمام فرعون، وسيشعر بالخوف في ساحة السحرة، وسيخرج مطارداً إلى البحر، وسيتعب مع قومه. لقد أُوتي سؤاله، ومع ذلك بقيت الوقائع الثقيلة؛ لأن إجابة الدعاء ليست

دائمًا إلغاء الامتحان، بل قد تكون إعطاء القلب ما يعبر به الامتحان.

ربما تدعو الله أن يبسر أمرك، ثم تجد أمامك مشقة، فتظن أن الدعاء لم يُستجب. لكنك لا ترى لطفه في قدرتك على الاحتمال، وفي الشخص الذي أرسله ليشد أزرك، وفي الفكرة التي جاءت في وقتها، وفي الباب الذي فُتح داخل الجدار، وفي السكينة التي منعت قلبك أن ينهار.

لقد أوتيت سؤالك، ولكن التيسير لا يعني غياب فرعون؛ بل يعني أن فرعون، بكل ما يملك، لن يستطيع إطفاء النور الذي وضعه الله فيك.

وهكذا ينتهي هذا المشهد وموسى لم يخطُ بعد نحو القصر، لكنه خرج من المناجاة بزااد لا تراه العيون:

صدر مشروح،

وأمر ميسّر،

ولسان مهيباً،

وأخ يشد الأزر،

ووعده من الله أن السؤال قد أُجيب.

سُورَةُ طه

وماذا يحتاج الإنسان بعد أن يقول له رب العالمين: **قَدْ**
أُوتِيتَ سُؤْلَكَ؟

المشهد الثامن

ولقد منّا عليك مرّةً أخرى

حين يكشف الله لموسى أن العناية سبقت الدعاء

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ۝ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ﴾

ما إن قال الله لموسى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾، حتى أعاده إلى أول الحكاية؛ إلى زمن لم يكن فيه موسى قادرًا على السؤال، ولا واعيًا بالخطر، ولا مالكا من أمره شيئًا.

كأن الله يقول له: أظن أن عنايتي بدأت الآن حين دعوتني؟ لقد رعيتك قبل أن تعرف كيف تدعو، وحفظتك قبل أن يتكون على لسانك لفظ الطلب، ودبرّت أمرك وأنت رضيع لا تعرف الخوف الذي كان يطوق مهده.

إن إجابة الدعاء الحاضرة ليست حادثة منفصلة، بل حلقة جديدة في سلسلة قديمة من الرحمة:

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾.

وهذه من أعظم طرائق القرآن في تثبيت القلب: حين تخاف المستقبل، أعد قراءة الماضي بعين الإيمان. انظر كم مرة عبرت بك العناية من موضع لم تكن ترى له مخرجًا، وكم من شر أحاط بك ثم صرفه الله، وكم من تدبير جرى لك وأنت لا تعلم.

إن ذاكرة النعمة وقود الثقة. فالذي حملك بالأمس لن يتركك غدًا، والذي عرف ضعفك الأول يعرف ضعفك الآن. وقد تتغير صورة الخطر، لكن ربك لا يتغير.

كان الخطر قديمًا سيفًا يبحث عن الأطفال، وهو اليوم عرشًا يهدد الرسول؛ وكان موسى رضيعًا يومئذ، وهو اليوم نبيًا. فإذا حفظه الله في أضعف حالاته، فكيف يتركه بعد أن اختاره وحمله رسالته؟

الوحي الذي نزل إلى قلب أمّ

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ۖ أَن أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَأُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾

ما أثقل هذا الأمر على قلب أم!

لقد كانت أم موسى تخاف على طفلها من جنود فرعون، فجاءها الإلهام أن تضعه في تابوت، ثم تلقيه في اليم. كأن النجاة في ظاهرها تشبه الهلاك، وكأن الطريق إلى الأمان يمر من قلب الخطر نفسه.

الأم بطبيعتها تضم ولدها حين تخاف عليه؛ لكن أم موسى أمرت أن تنجو به بأن تفلت يدها عنه. وما أصعب الإيمان حين يطلب منك أن تسلم لله أحب ما تملك، في اللحظة التي يصرخ فيها كل ما فيك أن تتمسك به!

﴿أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾.

أودعيه في صندوق صغير، واجعلي بين جسده الرقيق والماء ألواحًا لا تملكين أن تعرفي إلى أين ستذهب بها الأمواج. ثم:

﴿فَأَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾.

إنها لحظة لا يستطيع الخيال أن يعبرها بلا ارتجاف: يد الأم تدفع التابوت، وعيناها تتبعانه، وقلبها يكاد يقفز من صدرها وراءه. كان النهر في عيناها فراقًا، لكنه كان في تدبير الله طريق النجاة.

نحن نرى الماء، والله يرى الساحل.
نرى التابوت الصغير، والله يرى الرسول القادم.
نرى الأم تفقد ولدها، والله يدبر أن يعيده إليها بعد قليل
أكثر أمانًا وأشد قريبًا.

إن بعض الأقدار لا تُفهم من أولها. لو توقفت القصة عند
لحظة الإلقاء لبدت حزنًا خالصًا، لكن الله لا يطلب منا أن
نحكم على كتابه من سطر واحد، ولا على تدبيره من مشهد
لم يكتمل.

ثم انظر إلى دقة الأوامر وهي تتحرك تحت سلطان الله:

﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾.

اليم الذي لا يعقل مأمور. الماء الذي يبدو منفلتًا من كل قبضة
يجري في قبضة الله. والموج الذي تخافه الأم صار رسولًا
يحمل رضيعها إلى الموضع المقدر له.

لم يقل السياق: حمله اليم مصادفة، ولا دفعته الريح اتفاقًا؛
بل صار اليم كائنًا منفذًا للأمر: **﴿فَلْيُلْقِهِ﴾.**

فإذا كان البحر مأمورًا في شأنك، فمم تخاف؟
وإذا كانت الأمواج لا تستطيع أن تتجاوز ما رسم الله لها،
فكيف يضيع من أحاطته عنايته؟

لكن المفاجأة الأشد أن التابوت لم يذهب إلى بيت حليف، بل
إلى دار العدو:

﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾.

هنا يبلغ التدبير الإلهي ذروة لا تخطر للبشر: يُرَبِّي موسى
في القصر الذي صدر منه قرار قتله، وينفق فرعون على
الطفل الذي سيكون على يديه سقوط طغيانه.

حين يحفظ الله عبداً، قد يجعل حصن عدوه مأواه، ومال
عدوه نفقته، وحراسة عدوه سياجاً له. لا يحتاج الله إلى
إبعادك عن كل خطر كي يحميك؛ قد يحميك في قلب الخطر،
ويجعل ما أعد لإهلاكك سبباً لبقائك.

كان فرعون يفتش بيوت المستضعفين عن طفل يخشاه،
والطفل نفسه يدخل قصره محمولاً على الماء. هكذا يسخر
الله من غرور الطغيان: يرى الطاغية نفسه محيطاً بكل
شيء، بينما يكون قدر الله قد دخل بيته دون استئذان.

الطاغية يحصي المواليد، لكن الله يدبر المصائر.
يملك الجنود، ولا يملك القلوب.
يصدر أوامر القتل، ثم يعجز عن قتل رضيع وُضع بين
يديه؛ لأن كلمة من الله سبقت سيفه.

وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾

أي جلال وأي دفء في هذه العبارة!

لم يضع الله على موسى درعاً يراه الناس، بل ألقى عليه
محبة منه. نظر إليه من رآه، فمال قلبه إليه، ولم تطاوعه
نفسه أن يؤذيه. لقد حوّل الله القلوب المحيطة به إلى أسوار
خفية، وصار الحب جندياً من جنود الحفظ.

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾.

المحبة الصادقة ليست دائماً ثمرة ما يفعله الإنسان، بل قد
تكون هبة يضعها الله له في القلوب. ترى شخصاً فتأنس به،
ويقع له القبول في النفوس دون تصنع؛ لأن الله إذا أحب عبداً
ألقى له من القبول ما لا تصنعه البلاغة ولا تشتريه المكانة.

لكن أعظم من محبة الخلق أن يكون أصلها: ﴿مَنِّي﴾. فكل حب لا يتصل بمحبة الله يذبل أو ينقلب أو يخون، أما المحبة التي يهبها الله فتجيء في موضعها جزءاً من رعايته وحكمته.

ثم يقول سبحانه:

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾.

أي: لتنشأ تحت حفظي ورعايتي وعنايتي؛ والله سبحانه منزّه عن مشابهة خلقه، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾. إنها عبارة تسكب في القلب أماناً لا تستوعبه اللغة: لم تكن طفولة موسى مهمة بين الحوادث، بل كانت تجري تحت رعاية الله.

كل ما مر به كان يدخل في صناعته:

التابوت صنع فيه التوكل.

واليم فصله عن أسباب الأرض ليربط قصته بسبب السماء.

وقصر فرعون عرّفه بالطغيان من داخله.

والعودة إلى أمه حفظت له دفء الأصل والإيمان.

والخروج إلى مدين علّمه الغربة والصبر.

ورعي الغنم درّبه على الرفق والاحتمال.

والوادي المقدس كشف له معنى ما مضى كله.

﴿وَلِئُصْنَعَ﴾: فالرسول لا يظهر فجأة في لحظة التكليف؛ إنما يُصنع عبر سنين، وقد تكون أدوات الصناعة آلامًا لا يفهمها وهو يعبرها.

لعل في حياتك أحداثًا ظننتها انقطاعًا عن الطريق، وكانت إعدادًا له.
ولعل خسارةً بدت لك هدمًا، وكانت تهدم فيك ما لا يصلح للرسالة.

ولعل غربةً بكيت منها كانت توسع قلبك لآفاق لم تكن تبلغها في موطن الألفة.

ما دام الله يتولى صناعتك، فلا تحتقر شيئًا مر بك. قد تكون آثار الجراح نفسها هي المواضع التي يدخل منها النور إلى كلمتك، والعمق إلى رؤيتك، والرحمة إلى معاملتك للناس.

المشهد التاسع

كي تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ

الرحمة التي لم تنقذ الطفل وحده، بل داوت قلب أمه

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾

لم تنته العناية بوصول موسى سالمًا إلى القصر. كان هناك قلب أم خلفه يرتجف، والله لا يغفل القلوب التي تنكسر في أثناء جريان أقداره.

مشت أخته تتقصى أثره في صمت، لا تلفت الأنظار، وتحمل في قلبها سرًا أكبر من طفولتها. كانت العناية الإلهية تعمل هنا من خلال خطوات فتاة صغيرة. وهكذا لا تحتقر السماء الأدوار التي يحتقرها الناس؛ فقد يكون في حركة هادئة على هامش المشهد تغيير لمصير أمة.

قالت بحكمة ألهمها الله:

﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾.

لم تقل: هذه أمه؛ فتحفظت على السر، وفتحت في الوقت نفسه باب العودة. ورفض موسى المراضع حتى انتهى الأمر إلى المرأة التي كان قلبها يذوب شوقاً إليه.

عاد الطفل إلى حضن أمه، لكن هذه المرة بأمان القصر، وعلى نفقة من كان يطارده. لقد ألقته في الماء خوفاً من فرعون، فردّه الله إليها وفرعون نفسه يحرس بقاءه من حيث لا يدري.

﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ﴾.

نسب الله الرجوع إليه؛ لأن الأخت سبب، ورفض المراضع سبب، وحاجة القصر إلى المرضع سبب، لكن اليد الجامعة التي رتبت الأسباب كلها هي يد التدبير الإلهي.

كم من رجوع في حياتنا لا نفهم سلسلة الأبواب التي صنّعه! يظن الناس أن الأمر توافقات صغيرة، أما المؤمن فيرى وراء التوافقات حكمةً تنتظمها.

ثم تظهر رقة الغاية: ﴿كَي تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾.

لم يقل فقط: كي يكتمل غذاؤك، أو كي تعود إلى بيتك؛ بل ذكر حزن الأم. والله الذي يدبر مصير الرسائل الكبرى لا

يغفل دمة امرأة في بيت صغير. إن الأحداث عنده لا تطغى فيها القضايا الكبرى على الآلام الفردية؛ فهو رب الأمة ورب القلب الواحد، يجبر تاريخًا كاملاً، ويجبر في أثناء ذلك فؤاد أم.

كان يمكن أن يبقى موسى في القصر آمنًا، وتتحقق له الحماية، لكن قلب أمه سيظل محترقًا. فأبى لطف الله أن تكون نجاته على حساب حزنها، وردّه إليها ليجتمع حفظ الرسالة بجبر الأمومة.

وهذه لمسة من رحمة الله تعلمنا أن الجبر جزء من التدبير. ليس كل ما يريده الله من عبده أن يبقى حيًا ويؤدي وظيفته؛ بل يريد أن يسكب على قلبه من السكينة ما يقر به.

وقد يأتيك التعويض من الطريق نفسه الذي جاءك منه الألم: الماء الذي حمل ولدها بعيدًا كان هو الطريق الذي أعاده إليها؛ والقصر الذي خافت منه صار سبب أمنه؛ والفقد الذي كاد يمزقها عاد عليها بقرب أصفى من ذي قبل.

إنَّ الله طرائق في رد الأشياء أجمل من صورتها الأولى. يأخذها منك لحكمة، ثم يعيدها محاطة بمعرفة جديدة به؛ فتصير النعمة بعد الخوف أعمق، والقرب بعد الفراق أدفأ، والطمأنينة بعد الاضطراب أعرف بربها.

وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ

﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾

لا يروي الله لموسى مواطن النعمة وحدها، بل يفتح أمامه الصفحة التي تحمل أثقل ذكرياته: اليوم الذي وكز فيه الرجل فقضى عليه، ولم يكن موسى يريد قتله.

إن العناية لا تعني أن الإنسان لن يخطئ، بل تعني أن الله لا يتركه في خطئه إذا رجع إليه. وموسى الذي يُصنع للرسالة لم يكن ماضيه صفحة خالية من الألم؛ كان فيه فعل ظل يطارده بالندم والخوف.

﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾.

لم يكن الخطر خارجيًا فقط؛ كان في قلبه غم ثقيل. فالإنسان قد ينجو بجسده ويبقى أسيرًا داخل ذاكرته، وقد يخرج من المدينة ولا تخرج المدينة من نفسه.

فنجاه الله من الملاحقة، ونجاه بالتوبة والمغفرة من سجن الذنب، ثم أعاد توجيه حياته. لم يتحول خطأ موسى إلى هوية أبدية تحكم عليه، ولم يقل له ربه: أنت الذي فعلت يوماً فلا تصلح بعده لشيء. بل طهره، وربّاه، واصطفاه.

كم ينجح الشيطان في إقناع التائب أن أسوأ لحظة في ماضيه هي تعريفه النهائي! يظل يكرر عليه: أنت ذنبك، أنت سقوطك، أنت خطوك القديم. أما رحمة الله فتقول للعبد الصادق: كان ذلك فصلاً، وليس الكتاب كله.

والتوبة لا تمحو أثر الذنب في الصحيفة فحسب، بل قد تحول ألم الذكرى إلى بصيرة ورحمة وتواضع. من عرف ضعفه لا يتأله على الضعفاء، ومن ذاق طعم المغفرة لا يغلق أبوابها في وجوه الناس.

ثم قال سبحانه: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾.

نقلناك من اختبار إلى اختبار، ومررناك بألوان من الابتلاء حتى نضجت. والفتنة هنا ليست إضاعة، بل تمحيص وتربية؛ كالمعدن يدخل النار ليخرج أنقى وأصلب.

فُتِنَ موسى بالخوف، والغربة، والندم، والانتظار، وتحول الأحوال. لم تكن النبوة مكافأة لحياة مترفة؛ كانت أمانة حُمِلَ لها قلب مرّ بأفران التجربة.

فالإنسان الذي لم يذق شيئاً قد يتكلم عن الألم من خارجه، أما من فتنه الله فتوناً فقد تعلم لغة القلوب المكسورة. وموسى سيذهب لتحرير قوم مستضعفين؛ ولذلك كان لا بد أن يعرف في نفسه معنى أن يكون خائفاً، مطارداً، غريباً، محتاجاً إلى باب يؤويه.

فلبث سنين في أهل مدين

﴿فَلَبِثْتُ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتُ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾

﴿فَلَبِثْتُ سِنِينَ﴾ ...

ما أنقل السنين على من يجهل ما يُصنع له في أثنائها! ربما ظن موسى أن حياته قد استقرت بعيداً عن مصر، وأن صفحة القصر والخوف قد أغلقت، وأنه سيبقى راعياً في مدين. لكن تلك السنين لم تكن فراغاً بين حدثين؛ كانت جزءاً من الإعداد.

الله لا يقيس الزمن بعجلتنا. نحن نريد الثمرة حالاً، وهو يريد أن تنضج الجذور التي ستحملها. نريد الوصول، وهو يعلم أن نفوسنا بصورتها الحالية قد لا تحتمل ما نطلبه.

لبث موسى سنين؛ لأن بعض المعاني لا تُعطى في لحظة، بل تُنقش بالتكرار الهادئ: صبر الراعي، ويقظة الحارس، ورحمة القوي بالضعيف، واحتمال العزلة، والعيش بعيداً عن صخب القصور.

ثم جاءت العبارة التي تضيء كل سنوات الانتظار:

﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾

لم تأت متأخراً ولا مبكراً، ولم تصل إلى الوادي مصادفة؛ جئت في الموعد الذي قدرته لك، بعد أن اكتمل من تربيتك ما أراده الله.

كم من إنسان يظن أن العمر يفوته لأن بابه لم يُفتح بعد! ينظر إلى غيره وقد سبق، فيحسب التأخير إهمالاً، ولا يدري أن لكل رسالة موعد نضجها، ولكل عبد قدراً يأتي عليه.

الثمرة التي تُقطف قبل أوانها لا تمنح حلاوتها. والإنسان الذي يُدفع إلى مهمته قبل أن يتهياً لها قد تكسره المنزلة التي كان يتمناها.

﴿عَلَى قَدَرٍ﴾: في الزمن المناسب، والمكان المناسب، والعمر المناسب، وبعد التجارب المناسبة. لم يضع من حياتك شيء؛ حتى الطرق التي ظننت أنك انحرفت فيها قد يعيد الله توجيه أثرها لتدخل في بنائك الجديد.

إننا لا نصل إلى مواعيد الله بقوتنا وحدها؛ هو يسوقنا إليها عبر اختياراتنا وأحداثنا وأقداره. وقد نظن أننا نبحث عن نار، بينما نحن نجىء على قدر.

المشهد العاشر

واصطنعتك لنفسي

الغاية التي ترفع الإنسان فوق عبودية ذاته

﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾

هذه من أجل الكلمات التي يمكن أن تهبط على قلب بشر.

لم يقل: صنعتك لتكون مشهوراً، ولا لتؤسس لنفسك مجداً،
ولا ليُخَلَّد الناس اسمك، بل:

﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾.

ربيبته بعنايته تربية خاصة، وهياه لحمل رسالته والقيام
بعبوديته. وهذا الاصطناع تشريف عظيم، لكنه في الوقت
نفسه يخلص موسى من نفسه؛ فليس له أن يجعل الرسالة
مشروعاً شخصياً، ولا أن يستخدم الوحي في بناء مكانته.

أنت لله؛ ففرحك أن يرضى، ونجاحك أن تؤدي، ووجهتك
أن يبقى قلبك خالصاً له ولو لم يعرف الناس قدرك.

والإنسان لا يبلغ حريته الكاملة حتى يتحرر من أن يعيش
نفسه. فالعيش للذات يبدو حرية، لكنه يتحول إلى سجن:

يراقب المرء صورته في أعين الناس، ويزن كل شيء بما يعود عليه، ويضيق صدره بمن يشاركه، ويخشى أن يُنسى. أما من عاش لله فقد خرج من هذا السجن؛ يعمل ولو غاب اسمه، ويبذل ولو ذهب الثناء إلى غيره، لأن الله لا يغيب عنه شيء.

(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي): فلا تستهلكك نفسك بعد أن اصطفاك الله لعبادته. لا تذهب إلى فرعون لتنتقم لماضيكَ، بل لتقيم أمر ربك. لا تجعل جرحك الشخصي يلَوّن الرسالة، ولا تحول مواجهة الطغيان إلى تصفية حساب.

وهذه تربية دقيقة لكل صاحب قضية: قد يبدأ لله، ثم تتسلل ذاته إلى طريقه؛ فيصير غضبه لنفسه ويسميه غيره على الحق، ويصير طلب مكانته دفاعًا عن الرسالة، ويصير خصامه الشخصي معركة مقدسة.

من اصطنعه الله لعبادته يجب أن يراجع قلبه دائمًا: لمن أتكلم؟ لمن أغضب؟ لمن أكتب؟ لمن أصبر؟ وإذا لم يذكرني الناس، فهل يبقى للعمل في قلبي المعنى نفسه؟

اذهب أنت وأخوك بآياتي

﴿اذهب أنت وأخوك بآياتي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾

استُجيب دعاء موسى، وأصبح هارون معه. لم يعد الأمر:
اذهب وحدك، بل:

﴿اذهب أنت وأخوك﴾.

لكن الله لم يقل: اذهبا بقوتكما، أو بفصاحتكما، أو بتجربتكما؛
قال: ﴿بِآيَاتِي﴾. فالرسالة لا تستمد سلطانها من حملة الرسالة،
وإنما من الحق الذي يحملونه.

قد يكون حامل الحق ضعيف الصوت، قليل الأتباع، لكن
الآية التي معه ليست ضعيفة. وقد يكون الباطل مرفوعاً على
منابر ضخمة، مسنوداً بالسلطان والمال، لكنه يظل باطلاً؛
فالأصوات العالية لا تغير طبائع الحقائق.

ثم جاء الأمر الذي يحفظهما في الطريق: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾.

لا تضعفا، ولا تفترا، ولا تجعلا مواجهة فرعون تستولي على وعيكما حتى تنسيا من أرسلكما. فالذكر هنا ليس عملاً جانبياً إلى جوار المواجهة؛ إنه الحبل الذي يمنع القلب من السقوط في الخوف أو الغرور.

حين ينسى صاحب الرسالة ربّه، يبتلعه خصمه؛ ولو ظل يقاومه في الظاهر. يصبح كل تفكيره ردّ فعل، وكل حديثه عن العدو، وكل مشاعره معلقة بحركته. فيعظم فرعون داخل وعيه حتى وهو يلعنه.

أما الذكر فيعيد مركز الكون إلى موضعه الصحيح: ليس فرعون هو محور القصة؛ الله هو المحور. وليس ما يفعله الطاغية هو الذي يحدد مصير الرسالة؛ بل ما يقدره الله.

اذكرا الله عند باب القصر، حتى لا ترهبا القصر. واذكراه في ساحة السحرة، حتى لا يسحركما المشهد. واذكراه أمام البحر، حتى لا تظنا أن الماء نهاية الطريق. واذكراه عند النصر، حتى لا تنسبا الفضل إلى نفسيكما.

إن القلب يحتاج إلى الذكر في الضعف كي يثبت، ويحتاج إليه بعد القوة كي يتواضع.

المشهد الحادي عشر

فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا

رحمة الدعوة وهي تقف أمام أعتى الطغاة

﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۖ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾

تكرر الأمر بالذهاب إلى فرعون، لكن هذه المرة خوطب موسى وهارون معًا:

﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾.

ثم جاءت المفاجأة التي تكشف أخلاق الرسالة:

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾.

إلى فرعون؟

إلى الذي ذبح الأطفال واستعبد الناس وادعى الربوبية؟
نعم؛ لأن الداعية لا يستمد أخلاقه من أخلاق خصمه، بل من أمر ربه. ليس معنى بشاعة الباطل أن يتشبه حامل الحق ببشاعته.

والقول اللين ليس ممالأةً، ولا تميمًا للحقيقة، ولا مدحًا للطاغية. سيقولان له بوضوح: ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾، وسيكشفان له أن السلام على من اتبع الهدى، وأن العذاب على من كذب وتولى. لكنه وضوح لا يتغذى من الشهوة في الإهانة.

فالحق قوي بذاته، ولا يحتاج إلى فضاظة تحمله. ورب كلمة صحيحة أفسدها كبر قائلها، فتحولت في سمع المخاطب من باب للهداية إلى حجر على القلب.

﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾.

مع أن الله يعلم ما سيكون من فرعون، أمر الرسول أن يخاطبها خطاب من يفتح له باب الرجوع. وهذا يعلمنا ألا نتأله على مصائر الناس، وألا نغلق باب التوبة في وجه أحد ما دام حيًّا.

إن الرسالة لا تذهب إلى الإنسان لتنتقم منه، بل لتستنقذ ما بقي فيه من إنسانية. وحتى الطاغية يُعطى فرصة أن يتذكر أو يخشى، وتُقام عليه الحجة بكلمة تجمع قوة المعنى إلى رحمة الأسلوب.

لكن القول اللين لا يعني أن يكون صاحب الحق لئِن الموقف. يمكن للكلمة أن تكون هادئة وهي تهز عرشاً، وأن تكون رفيقة النبرة وهي تنزع عن الطاغية ادعاءاته كلها.

إن موسى لن يدخل على فرعون شاتماً، لكنه سيدخل عليه حاملاً كلمة تقوض الأساس الذي يقوم عليه سلطانه: أنت لست ربّاً؛ لك رب خلقك وهداك، وأنت مدعو إلى أن تزكّي كما يُدعى سائر العبيد.

وهذه هي أقصى حقيقة على الطاغية، قيلت في أنقى ثوب من الرحمة.

إننا نخاف أن يفرط علينا

﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾

لم تُذهب النبوة بشريتهما، ولم يجعل وجود الآيات في أيديهما الخطر وهماً. قالوا بصدق:

﴿إِنَّا نَخَافُ﴾

إنهما يعرفان فرعون، ويعلمان أنه قد يعاجلهما بالعقوبة، أو يزداد طغياناً حين يسمع ما يكره. ولم يعاتبهما الله على أصل الخوف، بل أجابهما بما يحتاجه الخائف.

في هذا تصحيح لصورة الإيمان: المؤمن ليس حجرًا لا يرتجف، ولا بطلًا أسطوريًا لا يعرف القلق. قد يخاف، لكنه لا يجعل خوفه ربًّا يأمره وينهاه. يرفع خوفه إلى الله، ثم يمضي بأمره.

الجبان هو من يترك الواجب لأن الخوف حضر. أما الشجاع فقد يمتلئ قلبه رهبة، ومع ذلك لا يخون الحقيقة.

وقالا: ﴿رَبَّنَا﴾. لجأ إلى معنى الربوبية: يا من رببتنا ودبرتنا، نحن لا نخفي عليك ما في نفوسنا. وهذا من صدق العلاقة مع الله؛ ألا تتصنع أمامه ثباتًا لا تجده، بل تأتيه بخوفك كما هو، ليضع فيه من سكينته.

إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى

﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾

هذه ليست جملة تُقرأ فحسب؛ إنها وطن للقلب حين تطارده المخاوف:

﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾.

لم يقل لهما: لا تخافا لأن فرعون ضعيف في ذاته، ولا لأنكما أقدر منه في الأسباب، بل رد الأمان إلى أصله كله: أنا معكما.

وهي معية تليق بجلال الله؛ معية علم وحفظ ونصر وتأيد، والله سبحانه فوق خلقه، منزّه عن مشابهمهم والإحاطة الحسية بهم. يسمع ما يقال، ويرى ما يقع، ولا يغيب عنه همس القصر ولا حركة الجند.

﴿أَسْمَعْ وَأَرَى﴾.

سأسمع كلمتكما حين تتكلمان، وأسمع تهديد فرعون حين يهدد. أرى وقفكما، وأرى ما يُدبر لكما. لن يسبقني سيف، ولن تخفى عليّ مؤامرة، ولن تكونا في لحظة خارج حظي.

ما الذي يفعله الطاغية بمن يعلم أن الله يسمعه ويراه؟ قد يمس جسده، وقد يهدد حياته، لكنه لا يستطيع أن يصنع شيئاً خارج علم الله وإذنه. وهذه المعرفة لا تعني أن المؤمن لن يتعرض للأذى، لكنها تعني أن الأذى لن يكون عبثاً، وأن المؤذي لن يفلت، وأن المعركة كلها تجري تحت بصر العدل والحكمة.

﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾: ولهذا لن تكون الكثرة وحدها ميزاناً. موسى وهارون اثنان أمام إمبراطورية، لكن الحساب الذي ينسى المعية حساب ناقص.

قد تكون وحدك في مجلس يمتلئ بالباطل، لكنك لست وحدك إذا كنت قائماً لله. وقد تُحاصر كلمتك، لكن سامعها الأول هو الله. وقد يشوّه موقفك عند الناس، لكن الذي يرى سريرتك لا تخفى عليه حقيقةك.

وإذا استقرت ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ في القلب، لم تعد الشجاعة ادعاءً يصنعه الإنسان، بل سكينه تهبط عليه من معرفته بمن معه.

المشهد الثاني عشر

قد جنناك بآية من ربك

حين يدخل الحقُّ القصرَ بلا سيف

﴿فَأَنبِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ أَتْبَعَ الْهُدَى﴾

دخلا عليه لا باعتبارهما رعيّتين تستجديان رضاه، بل رسولين من رب أعلى من سلطانه:

﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾.

ولم يقولوا: ربنا فقط، بل: ربك. أنت الذي ادعيت العلو عبد مربوب، ولست خارج سلطان الخالق. في كلمة واحدة استعاد الوجود ترتيبه الصحيح: فرعون ليس في أعلى الهرم، بل فوقه رب خلقه، ويمهله، ويدعوه قبل أن يأخذه.

ثم جاء المطلب واضحاً: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا نُعَذِّبْهُمْ﴾.

فالرسالة لا تكتفي بوعظ الطاغية في شؤونه الخاصة، بل تطال بنية الظلم نفسها. لا يكفي أن يشعر فرعون بخشوع عابر، بينما يبقى المستضعفون تحت سوطه. الإيمان الذي لا يغيّر علاقة الإنسان بالناس إيمان لم ينفذ إلى عمق الحياة.

﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾: كلمتان تقفان في وجه تاريخ من الاستعباد. إن الله يسمع أنين الجماعات التي حُوِّلَت إلى أدوات في مشاريع الطغاة، ويرسل رسله لتحرير الإنسان من عبادة الإنسان.

ولم يأت موسى بسلطان من عند نفسه:

﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾.

ليست العصا حيلة سحرية، ولا الدعوة انقلاباً شخصياً على الملك؛ إنها آية من ربك، فالمعركة ليست بين رجلين يتنازعان السلطة، بل بين عبودية الله واستعباد البشر.

ثم قالوا: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾.

فالسّلام ليس شعارًا يعلّق على كل طريق ولو قاد إلى الظلم؛ السّلام ثمرة اتباع الهدى. ومن حارب الحق وأقام حياته على تعذيب الناس لا يصنع سلامًا بمجرد أن يرفع اسمه.

إن الهدى يبدأ في الضمير، ثم يثمر سلامًا في الحياة. وإذا غاب الهدى، تحولت القوة إلى بطش، والعلم إلى أداة استعلاء، والثراء إلى احتكار، والدولة إلى سجن كبير.

العذاب على من كذب وتولى

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾

بعد القول اللين جاء التحذير الصريح. فالرحمة لا تعني إخفاء العقوبة، واللين لا يعني أن يُترك الإنسان مخدوعًا بأمن كاذب.

﴿مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾: جمع بين فساد الإدراك وفساد الإرادة؛ كذب بالحقيقة، ثم أعرض عنها. وقد يعرف الإنسان في قرارة نفسه أن للحق وجهًا، لكنه يتولى لأن اتباعه يكلفه امتيازًا أو شهوة أو موقعًا.

لم يقولوا له: إن العذاب عليك حتمًا من أول خطاب، بل عرضا القضية بميزان عام: العذاب على من اختار التكذيب والتولي. وكأن باب النجاة ما يزال مفتوحًا؛ فإن رجعت لم تكن من هؤلاء.

هذه عدالة الوحي: لا يعاقب الإنسان على اسمه أو طبقته أو ماضيه وحده، وإنما على موقفه من الحق بعد بلوغه. حتى فرعون لم يُحرم البيان، بل جاءه رسولان، وآيات، وقول لين، وفرصة للتذكر والخشية.

لكن الطغيان حين يطول يصنع في النفس سجنًا؛ يصعب على الطاغية أن يعترف بأنه عبد بعدما بنى سلطانه كله على أنه سيد. لا يمنعه نقص البرهان بقدر ما يمنعه ثقل الصورة التي صنعها عن نفسه.

وسوف يسأل فرعون الآن سؤالًا يبدو في ظاهره بحثًا عن المعرفة:

فمن ربكما يا موسى؟

لكن موسى لن يدخل في متاهة القصر، ولن يسمح للطاغية أن يجعل نفسه معيارًا للحقيقة. سيجيب بعبارة تهز أساس الوجود الفرعوني كله:

﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾.

فرب موسى ليس إله قبيلة ينازع فرعون رقعة من الأرض، بل رب الوجود كله: خلق، وأعطى، وهدى. وأما فرعون، بكل ما ادعاه، فلم يخلق نفسه، ولم يمنحها صورتها، ولم يهد قلبه إلى نبضة واحدة.

وهنا ستبدأ المناظرة التي يقف فيها رجل يحمل كلمة الله أمام رجل يظن أنه يملك الناس؛ لتكشف السورة أن أفخم القصور قد يكون أضيق من قلب مؤمن، وأن أعتى الطغاة قد يعجز أمام سؤال واحد يعيد الكون إلى خالقه.

المشهد الثالث عشر

فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى؟

حين يحاول الطاغية أن يضع الحقيقة في قفص السؤال

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾

كان السؤال في ظاهره طلبًا للتعريف، لكنه خرج من قلب اعتاد أن يرى نفسه أعلى مرجع في الأرض. كأن فرعون يقول: من هذا الذي تزعم أنه ربكما، حتى يرسل إليّ، ويأمرني، ويطالبني بإطلاق قوم جعلتهم خدمًا لملكي؟

إن الطغيان لا يكتفي بأن يملك أجساد الناس؛ يريد أن يملك تعريفاتهم أيضًا: يقرر لهم ما الحق وما الباطل، من يستحق أن يُسمع ومن ينبغي أن يُسكت، أي فكرة يجوز أن تولد وأي معنى يجب أن يُدفن.

ولذلك كان مجرد قول موسى: ﴿رَبِّكَ﴾ هدمًا لجذر الفرعونية؛ فقد أعاد فرعون من مقام الرب المزعوم إلى مقام العبد المخاطب.

لم يضطرب موسى أمام السؤال، ولم يدخل في دفاع مرتبك، ولم يحاول استرضاء عقل الطاغية. أجاب بكلمات قليلة، لكنها وسعت الوجود كله:

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾.

ربنا هو الذي أعطى كل موجود خلقه وهيئته وخصائصه، ثم هداه إلى ما يصلح له وإلى الغاية التي خلقه من أجلها. منح الطائر جناحه، ثم هداه إلى فضائه؛ والسماك خلقته، ثم هداه إلى مائه؛ والرضيع فمه، ثم هداه إلى ثدي أمه؛ والبذرة سرها، ثم هداها أن تشق التراب وتصدر نحو الضوء.

انظر إلى الوجود: لا شيء يحمل خريطة طريقه في يده، ومع ذلك تمضي الكائنات إلى وظائفها في نظام مدهش. من علم النحلة بناء بيوتها؟ ومن هدى الطيور في أسفارها؟ ومن أودع في العروق معرفة الطريق إلى أطراف الجسد؟ ومن علم العين أن تستقبل الضوء، والقلب أن ينبض وينبسط، والأرض أن تخرج ألوان نباتها؟

إن الهداية منشورة في الخلق قبل أن تصبح كتابًا يُتلى. والكون كله شهادة متحركة بأن الموجودات لم تُلق في الفوضى، بل أُعطي كل شيء خلقه، ثم أرشد إلى سنته.

والإنسان نال من الخلق أوسع الاستعدادات، ثم جاءه الوحي هدايةً لإرادته؛ لأن جوارحه تعرف وظائفها بالفطرة، أما قلبه فقد مُنح الاختيار، فاحتاج إلى نور يهديه في مفارق الطريق.

المفارقة أن فرعون نفسه يعيش بهداية الله الكونية: قلبه ينبض، وورثاته تنتفسان، وعيناه تبصران بما أودع الله فيه؛ ثم يستخدم النعم التي لا يملك سرها في إنكار المنعم.

إنه لم يمنح نفسه خلقه، ولم يهداها إلى نبضة واحدة، فكيف يكون ربًّا؟

فما بال القرون الأولى؟

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ ○ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴿

حين تضيق الحجة بالطاغية، يحاول نقل الحديث إلى ساحة أخرى. بدل أن يواجه السؤال عن ربه وعن ظلم الحاضر، سأل عن الأمم الماضية: ما شأن القرون التي سبقت؟ ما مصيرها؟ وكيف تحاسب؟

إنها حيلة قديمة: حين تكون الحقيقة واضحة ومُلزمة، يُفتح جدل جانبي يستهلك الوقت ويصرف القلب عن موضع التكليف.

لكن موسى لم يسمح للسؤال أن يسحبه إلى دعوى ما لا يعلم. قال:

﴿عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ﴾.

هناك أسئلة يكون صدق الإيمان فيها أن تعرف حدك. ليس على حامل الوحي أن يتظاهر بعلم لم يعطه الله، ولا أن يملأ كل فراغ بتخمين. قولك: العلم عند الله، ليس عجزًا معرفيًا مذمومًا؛ بل أدب العقل أمام ما وراء حدوده.

ثم قرر موسى الحقيقة التي تمنح التاريخ عدالته:

﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾.

لا يخطئ موضع إنسان، ولا يختلط عليه اسم باسم، ولا يغيب عنه عمل، ولا يسقط من علمه وجعٌ مرٌّ وانتهى من ذاكرة الناس. كل شيء في كتاب؛ محفوظ، مضبوط، حاضر في علم لا يعتريه النقص.

الطغاة يراهنون على النسيان. يظنون أن الزمن إذا مرّ على الجريمة أذابها، وأن صمت المؤرخين يبرئهم، وأن المظلوم إذا مات ماتت قضيته. لكن رب موسى لا ينسى.

كم من قرية سقطت من الخرائط وهي محفوظة في كتابه!
وكم من دم جف على الأرض ولم يجف في ميزان العدل!
وكم من صالح مجهول مات ولم يعرف الناس تضحيته،
لكنها عند الله لا تضيع!

إن الذاكرة البشرية قد تخون، والسجلات قد تزور، والشهود قد يموتون؛ أما كتاب الله فلا تحكمه يد المنتصرين.

﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾: لذلك يستطيع المظلوم أن يموت مطمئناً إلى أن قضيته لم تمت، ويستطيع العامل الصادق أن يمضي ولو لم يحصد ثناءً؛ لأن الذي يزن العمل لا يفوته شيء.

المشهد الرابع عشر

الأرض التي صارت مهذاً

حين يتحول الكون إلى كتاب مفتوح عن الله

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَّكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾

بعد أن كشف موسى حقيقة الربوبية، تمتد الآيات أمام البصيرة لتقرأ آثارها في الأرض.

﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾.

الأرض بكل اتساعها مهد. وما المهد إلا موضع يهياً للضعيف قبل أن يقدر على تهيئة نفسه. فالإنسان دخل العالم فوجد الأرض ممهدة لحياته: هواءً يصلح لتنفسه، وماءً يروي جسده، وتربةً تحمل خطاه، وقوانين ثابتة تمنحه إمكان أن يبني ويزرع ويسافر.

لم يصنع الإنسان الشروط الأولى لوجوده؛ استيقظ فوجد المهد قائماً. ثم عاش طويلاً حتى ألف النعمة، فتوهم أن الألفة تلغي العجب.

لو اختلف مقدار واحد من موازين الأرض، لتحولت من مهد إلى مهلكة. لكن الله سَوَّاهَا للعيش، ثم:

﴿وَسَلَّكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾.

فتح في الجبال طرقًا، وفي البراري مسالك، وفي البحار مجاري، وجعل في العقل قدرة على اكتشاف الطريق. ليست الأرض كتلة صامتة؛ إنها دار مهياة لحركة الإنسان وسعيه.

وكل طريق في الأرض يذكر بالطريق الأعظم: كما لم يترك الله جسدك بلا سبيل يسلكه، لم يترك روحك بلا هدى. أنزل الماء من السماء لتحيا الأرض، وأنزل الوحي من السماء لتحيا القلوب.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾.

ماء واحد ينزل بلا لون، ثم تمر به الأرض فيخرج أحمر وأخضر وأصفر، حلوا ومرًا، زهرًا وثمرًا وحبًا. من أين جاءت هذه الفروق كلها من قطرة واحدة وتربة متجاورة؟

إن الوحدة في المصدر لم تمنع التنوع في الأثر. وهذا من جمال الصنعة الإلهية: لا يكرر الخلق في صورة مملة، بل يبت في أصل واحد عوالم من الألوان والروائح والطعوم.

الكون ليس مصنوعًا باردًا؛ فيه جمال زائد على مجرد المنفعة. كان يمكن للغذاء أن يخرج بلا لون ولا عطر، لكن الله يرَبِّي الإنسان بالنفع والجمال معًا. وكأن الزهرة تقول له: الذي هيا لك الحياة لم يردك أن تبقى حيًّا فحسب، بل أن ترى آيات الحسن وتشكر.

كلوا وارعوا أنعامكم

﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾

كلوا؛ فالطعام نعمة مباحة، والإيمان لا يعادي طبيبات الحياة. وارعوا أنعامكم؛ فالله الذي أطعم الإنسان لم ينسَ الحيوان الذي يعيش في خدمته.

لكن لا تقفوا عند الطعام نفسه؛ اعبروا من النعمة إلى المنعم:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾.

أولو النهي هم أصحاب العقول التي تنهاهم عن الغفلة والانحراف. فالعقل القرآني لا يكتفي بأن يعرف كيف ينتفع بالشيء، بل يسأل: ماذا يدل عليه؟

قد يدرس الإنسان النبات، ويحلل الماء، ويحصى مكونات التربة، ثم لا يرى وراء النظام حكمة. يكون قد عرف الآلية وغاب عنه المعنى؛ قرأ الحروف ولم يدرك الرسالة.

العقل الحق لا تقوده المعرفة إلى الكبر، بل إلى خشوع أعمق. فكلما اتسعت معرفته بتعقيد الخلق، ازداد إدراكه لضالة ما يملك أمام علم الخالق.

إن رغيـف الخبز الذي ترفعه إلى فمك هو خاتمة رحلة طويلة: سماء حملت الماء، وريح دفعت السحاب، وأرض شقت البذرة، وشمس أنضجت السنابل، وأيدٍ حرثت وحصدت. كم من جنود الرحمة اجتمعوا حتى وصلت إليك اللقمة!

ولهذا كانت البسملة قبل الطعام والحمد بعده إعادةً للنعمة إلى أصلها، حتى لا تتحول الألفة إلى عـمى.

منها خلقتناكم وفيها نعيدكم

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾

في آية واحدة تختصر رحلة الجسد كله:

من الأرض بدأ، وإليها يعود، ومنها يخرج مرة أخرى.

يمشي الإنسان فوق التراب متكبرًا، وينسى أنه يحمل أصل التراب في جسده، وأن الأرض التي يطؤها ستضمه يومًا، ثم يأذن الله لها أن تخرجه.

ما أشد هذه الآية على غرور فرعون! إنه يدعي العلو، بينما بدايته من الأرض ونهايته إليها. يرفع بناءه فوق التراب، لكنه لا يستطيع أن يلغي نسبه إليه ولا مواعده معه.

غير أن العودة إلى الأرض ليست نهاية القصة:

﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾.

فالذي أخرج النبات من التراب قادر أن يخرج الأجساد منه. كل ربيع حجة لطيفة على البعث، وكل أرض ميتة تحيا بعد المطر صورة تقرب للعقل ذلك الوعد العظيم.

الموت في التصور القرآني ليس سقوطًا في العدم، بل عودة مؤقتة إلى أصل المادة، يعقبها إخراج جديد للحساب والخلود. ولذلك لا يكون القبر خاتمة المظلوم ولا مهرب الظالم.

سيخرج الجميع: من ظن أنه صار نسيًّا، ومن توهم أن
التراب ستر جرائمه. يومئذ يتساوى الملك وال خادم في
الخروج، ثم تتفاوت المنازل بما حملته الأرواح.

المشهد الخامس عشر

ولقد أريناه آياتنا كلها

حين لا يكون نقص البرهان هو المشكلة

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾

لم يُحرم فرعون الدليل. رأى الآيات، وسمع البيان، وخطب باللين، وفُتح أمامه باب التذكر؛ ثم جاء اختياره:

﴿فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾.

التكذيب موقف اللسان والعقل في الظاهر، والإباء حركة الكبر في الباطن. وربما كان الإباء هو الجذر الذي أنبت التكذيب؛ لم يرفض لأن الحقيقة لم تظهر، بل لأن الانحناء لها يهدم الصورة التي صنعها لنفسه.

كم من إنسان لا يحتاج إلى برهان جديد، بل إلى تواضع يسمح للبرهان الموجود أن يدخل قلبه! فقد تبلغ الأدلة حدها، ويبقى الباب مغلقًا من الداخل.

إن العقل يستطيع أن يصنع الحجج، لكنه إذا صار خادماً للكبر استخدم ذكائه في الهرب من الحقيقة. وكلما جاءه نور، أعاد تفسيره بما يحفظ له مركزه القديم.

فرعون لم يكن يريد معرفة الحق، بل أراد وسيلة لإبطال أثره. ولذلك حين عجز عن مواجهة الآية في ذاتها، لجأ إلى الاتهام الجاهز:

السحر.

فالسلطة الباطلة لا تناقش كل حقيقة؛ قد تعيد تسميتها فقط. تسمي الحرية فوضى، والعدل تمرّداً، والناصح عدوّاً، والآية سحراً؛ لأن تغيير الاسم أسهل من مواجهة المسمى.

أَجْنَتْنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا؟

﴿قَالَ أَجْنَتْنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴾

موسى جاء يطلب إطلاق بني إسرائيل ووقف تعذيبهم، لكن فرعون أعاد صياغة الدعوة في صورة تهديد عام: يريد أن يخرجكم من أرضكم.

إنها حيلة الطاغية حين يشعر أن الحق يهدد امتيازاته: يحول قضيته الشخصية إلى قضية وطن، ويجعل بقاء سلطانه مساويًا لبقاء الأرض، حتى يلتف الناس حول خوفه وهم يظنون أنهم يدافعون عن أنفسهم.

لم يقل: جئت لتخرجني من سلطاني؛ بل قال: ﴿مِنْ أَرْضِنَا﴾. فجأة صار الطاغية واحدًا من الجماعة، بعد أن كان فوقها؛ يستخدم ضمير الجمع حين يحتاج إلى حشدهم، ثم يعود إلى ضمير الاستعلاء حين يستقر له الأمر.

والخوف إذا دخل وعي الجماهير عطل سؤلهم: هل جاء موسى حقًا ليستولي على أرضنا، أم جاء ليحرر قومًا من العذاب؟ لكن الدعاية لا تمنح الناس وقتًا للتفكير؛ تقدم لهم خصمًا مخيفًا، ثم تطلب منهم أن يصطفوا خلف السلطة.

ووصف الآية بأنها سحر؛ لأن الاعتراف بأنها آية يعني الاعتراف برب موسى. والطاغية مستعد أن يبدل اللغة كلها حتى لا يبدل موقعه.

فلنأتينك بسحر مثله

﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾

ظن فرعون أن الحق حرفة يمكن أن تواجه بحرفة، وأن آية الله عرض بصري ينافسه بعرض آخر. وهكذا يفهم العقل المادي الصرف الأشياء: لا يرى وراء الصورة مصدرها، ولا وراء الحدث دلالاته.

طلب موعدًا عالمًا ومكانًا مستويًا ظاهرًا للناس؛ لأنه وثق بأن كثرة السحرة وهيبة الدولة ستصنعان الحقيقة التي يريدها. الطغيان يؤمن بالمشهد أكثر من المعنى، وبالمنصة أكثر من البرهان.

لكن الله سيجعل المنصة التي أعدها فرعون لإذلال موسى مكانًا لإعلان صدقه، وسيحول السحرة الذين جُمعوا لهزيمته إلى أول المؤمنين في الساحة.

ما يدبره الباطل لإطفاء النور قد يجعله الله مصباحًا أكبر له. فقد يفتح الخصم للحق منبرًا لم يكن يملكه، ويجمع له شهودًا لم يكن يستطيع جمعهم، ثم تأتي اللحظة فينقلب المشهد كله.

موعدكم يوم الزينة

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضَحَىٰ﴾

اختار موسى يوم الزينة، يوم اجتماع الناس وفراغهم، واختار الضحى حين يكتمل الضوء وتظهر الأشياء، فلا ظلمة تستر ولا زاوية خفية تسمح بالتلبيس.

الحق لا يخشى النور. لا يحتاج إلى الغرف المغلقة ولا إلى غفلة الجمهور. قال موسى: ليكن الناس جميعًا شهودًا، وليكن الموعد في وضح النهار.

كان فرعون يظن أن الحشد ملكه، لكن موسى يعلم أن القلوب ليست ملكًا لمن جمع الأجساد. يستطيع السلطان أن يحشر الناس في مكان، لكنه لا يستطيع أن يضمن ماذا سيولد في ضمائرهم حين يرون الحق.

في ذلك الصباح ستخرج الجماهير لمشاهدة انتصار السحرة، ثم تعود وقد رأت السحرة أنفسهم يسجدون لرب موسى وهارون. وسيكتشف الطاغية أن المنصة التي بناها لعرض قوته أظهرت عجزه.

المشهد السادس عشر

فتولّى فرعون فجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى

الباطل حين يحشد كل أدواته أمام عصا

﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾

تحركت أجهزة المملكة كلها. جُمع السحرة، ونُظمت الساحة، وحُشد الناس، واستُنْفرت أدوات التأثير. كان فرعون يرى الأمر معركة يجب أن يربحها؛ لأن هزيمة السحر أمام موسى ليست هزيمة فنية، بل انكشاف لزيغ الأساس الذي يقوم عليه العرش.

﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾.

كل ما يملك الباطل هو الكيد: ترتيب الأسباب لإخفاء الحقيقة أو تشويهها. وقد يبدو الكيد ضخماً لأن وراءه المال والسلطة والخبرة، لكنه يظل محدوداً؛ يجمعه بشر ضعفاء، ويجري في ملك الله، ولا يتجاوز ما يأذن به.

ثم أتى فرعون في موكبه، ومعه ما جمع. وأتى موسى بعصاه ووعد ربه. وفي ظاهر المشهد لا توجد مقارنة، لكن ميزان السماء لا يحصي العدد وحده؛ يسأل: مع من الحق؟

ويلكم لا تفتروا على الله كذبًا

﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَن افْتَرَىٰ﴾

قبل أن تبدأ المنافسة، لم يشتم موسى السحرة، ولم يتشف بهم، بل حذرهم. رأى فيهم أرواحًا ما زال يمكن إنقاذها، لا أدوات في جيش الخصم فحسب.

﴿لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

لا تنسبوا إلى السحر مقام الآية، ولا تجعلوا التخيل مساويًا للحق، ولا تستخدموا مهارتكم في تثبيت دعوى طاغية تعلمون أنها باطلة.

كان يستطيع أن يقول: ستنهزمون، لكنه قال: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن افْتَرَى﴾. فالخسارة الحقيقية ليست أن تسقط الحبال في الساحة، بل أن يبني الإنسان حياته على كذبة.

والافتراء أخطر حين يتحول إلى مهنة يكافأ صاحبها عليها. السحرة ينتظرون الأجر والقرب من فرعون؛ أي إن الكذب لم يعد خطأ عابرًا، بل طريقًا إلى المكانة.

كم من موهبة تتحول إلى أداة تضليل حين يبيع صاحبها ضميره للسلطان! الكلمة، والصورة، والخطابة، والعلم، كلها يمكن أن تكون جسورًا إلى الحقيقة، ويمكن أن تصبح حبالًا تخيل إلى الناس أن الباطل حي يسعى.

لكن كلمة موسى اخترقت صفهم قبل أن تتحرك عصاه. لقد أيقظت فيهم سؤالاً: ماذا لو كان هذا الرجل صادقًا؟ وماذا لو لم يكن ما معه من جنس ما معنا؟

فتنازعوا أمرهم بينهم

﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾

أحدثت الكلمة شقًا في جدار الثقة المصطنعة. تنازعوا، وأسروا الحديث؛ لأن الباطل يبدو صلبًا ما دام أهله يرددون خطابًا واحدًا، فإذا دخل السؤال إلى الداخل ظهرت هشاشته.

ربما أدرك بعضهم، بما لهم من خبرة بالسحر، أن ما جاء به موسى ليس من صناعتهم. فالخبير بالتزييف قد يكون أسرع الناس تعرفًا إلى الحقيقة حين يراها؛ لأنه يعلم حدود الحيلة.

لكن المصالح والخوف وضغط الجماعة تعيد جمع النفوس حول الرواية التي يريدها السلطان:

﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ أُنْيُودَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾.

تكررت الدعاية نفسها: خطر على الأرض، وتهديد للطريقة المثلى، أي للنظام والثقافة والمكانة التي ألقوها.

الباطل لا يقول للناس: دافعوا عن ظلمي؛ بل يقول: دافعوا عن حياتكم وهويتكم وطريقتكم. يجعل مصالحه الخاصة مقدسات عامة، حتى يبدو الاعتراض عليه اعتداءً على الجميع.

فأجمعوا كيذككم ثم انتوا صفًا

﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ انْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى﴾

هكذا يتحدث منطق الباطل: الفلاح لمن استعلى، لمن غلب المشهد، وأرهب الجمهور، وخرج في النهاية أعلى من خصمه.

أما منطق الوحي فالفلاح فيه لمن تزكى، وخشي، وآمن، وعمل صالحًا. وهنا تتقابل رؤيتان كاملتان للحياة:

فرعون يقول: أفلح من استعلى.
والوحي يقول: أفلح من تزكى.

الأولى تجعل القيمة في الارتفاع فوق الناس، والثانية تجعلها في الارتفاع عن دنس النفس. الأولى تحتاج إلى من هم تحتها لتشعر بوجودها، والثانية تستمد معناها من قربها من الله.

اصطف السحرة ليصنعوا أثر الكثرة والانضباط. فالباطل يهتم بالصف حين يكون الصف ستارًا على فراغ المعنى. لكن ألف حبل لا تصبح حقيقة لأنها أُلقيت في وقت واحد، والكذب لا يتحول حقًا لأن قائله وقفوا صفاً.

المشهد السابع عشر

إِمَّا أَنْ تُثْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى

اللحظة التي اهتز فيها القلب البشري للنبي

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ۚ﴾
﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾

خبروه في البدء، فقال: ﴿بَلْ أَلْقُوا﴾. دعوا الباطل يخرج أقصى ما عنده، حتى تظهر حدود قوته كاملة، ثم تأتي الحقيقة فلا يبقى لأحد عذر أن يقول إن السحر لم يأخذ فرصته.

ألقوا حبالهم وعصيهم، فإذا الساحة تمتلئ بحركة مهيبه. لم تتحول الحبال في حقيقتها إلى أحياء، لكن السحر أثر في الأبصار، حتى خُيِّل أنها تسعى.

وهنا يكشف القرآن طبيعة جانب كبير من سلطان الباطل: التخيل. لا يخلق حقيقة جديدة، لكنه يتلاعب بالإدراك حتى يبدو الزائف حقيقياً، والضعيف قوياً، والكثير البهرج ثابتاً.

إنه يملك الصورة، فيوهمك أنه يملك الحقيقة. يكرر الكذبة حتى تألفها الأذن، ويجمع حولها الأصوات حتى يظن الفرد أن شكه وحده دليل على خطئه.

والتخييل لا يكون بالسحر القديم وحده؛ لكل عصر حباله التي تتحرك في أعين الناس. قد تكون صورة منتقاة، أو رقمًا مبتورًا، أو خبرًا مكرّرًا، أو هيبة مصنوعة، أو إجماعًا زائفًا. وما لم يكن للقلب معيار من الوحي، قد يسجد لما خُيل إليه أنه يسعى.

فأوجس في نفسه خيفةً موسى

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾

لم يخف القرآن هذه اللحظة، ولم يحذفها من سيرة النبي ليصنع منه صورة غير بشرية. أوجس موسى في نفسه خيفة.

لقد امتلأت الساحة بالحبال المتحركة، وتعالَت رهبة المشهد، والجماهير تراقب. وفي لحظة شعر القلب بالخوف.

لكن الخوف كان في نفسه؛ لم يتحول إلى فرار، ولم ينقلب إلى تنازل، ولم يمنعه من انتظار أمر الله. وهذه هي البطولة القرآنية: ليست قلباً لا يرتعش، بل قلباً إذا ارتعش رجع إلى الله.

ربما خشي أن يلتبس الأمر على الناس، وأن يسبق التخييل رؤية الآية، أو شعر بما يشعر به البشر أمام مشهد مباغت. فجاءه التثبيت فوراً:

﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾.

لست الأعلى بذاتك، ولا لأن عصاك أمضى من حبالهم؛ بل لأن معك الحق. وعلو الحق لا يتوقف على إحساس صاحبه في اللحظة؛ قد يرتجف حامل الحق، ويبقى الحق عالياً.

كم يحتاج الإنسان إلى هذه الكلمة حين يطغى عليه المشهد! ربما يرى الباطل منتشرًا، منظمًا، محاطًا بالتصفيق، فيحسب الكثرة علوًا. لكن الله يرى ما وراء الصورة: **﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾.**

ليس كل من علا في المنصة عاليًا في الميزان، ولا كل من ضاقت به الأرض منخفضًا. قد يكون المؤمن مطارداً في الظاهر، لكنه عند الله في موضع العلو لأنه لم يبيع قلبه.

وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ
وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾

لم يقل: ألق العصا، بل:

﴿أَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾.

كأن قيمة الشيء ليست في اسمه ولا مادته، بل في الأمر الذي تعلق به. ما في يمينك، مهما بدا صغيراً، إذا تحرك بأمر الله يبتلع ما صنعه منظومة كاملة من الكيد.

﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾.

الحق لا يزاحم الباطل على نصف الساحة؛ حين يظهر على وجهه الصحيح يكشفه ويبتلعه. لأن ما صنعوا ليس خلقاً حقيقياً، بل كيد ساحر، وتراكم الحيل لا يمنحها جوهراً.

﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾.

قد ينجح لحظةً في خداع الأبصار، وقد ينال أجراً وقرباً من السلطان، وقد يصفق له الناس؛ لكنه لا يفلح. فالنجاح العابر شيء، والفلاح شيء آخر. النجاح قد يكون وصولاً إلى غرض قريب، أما الفلاح فنجاة الإنسان في مآله كله.

أَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ. لَا تَنْتَظِرُ أَنْ تَمْتَلِكَ حُجْمَ مَنْظُومَتِهِمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَحْتَاجُ مِنْكَ إِلَّا صَدَقَ الْإِمْتِثَالُ. عَصَا وَاحِدَةٍ صَادِقَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ حَبْلِ كَاذِبٍ، وَكَلِمَةٌ حَقٌّ وَاحِدَةٌ قَدْ تَمْحُو سِنَوَاتٍ مِنَ التَّخْيِيلِ حِينَ تَأْتِي لِحَظَّتِهَا.

المشهد الثامن عشر

فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا

حين عرف أهل الصنعة الفرقَ بين الآية والحيلة

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾

لم يقل: فسجد السحرة فحسب، بل:

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾.

كَانَ الْحَقِيقَةُ حِينَ دَخَلَتْ قُلُوبَهُمْ طَرَحَتْ أَجْسَادَهُمْ إِلَى الْأَرْضِ، فَلَمْ يَمْلِكُوا أَمَامَهَا إِلَّا السُّجُودَ. كَانُوا مِنْذُ لَحْظَاتٍ يَقِفُونَ صَفًّا طَلَبًا لِلْقَرَبِ مِنْ فِرْعَوْنَ، فَإِذَا جَبَاهُهُمْ عَلَى التُّرَابِ إِعْلَانًا لِلتَّحَرُّرِ مِنْهُ.

عَرَفُوا، بِحُكْمِ خَبَرَتِهِمْ، أَنَّ مَا رَأَوْهُ لَيْسَ سِحْرًا. النَّاسُ قَدْ يَدْهَشُهُمُ الْمَشْهَدُ، أَمَّا السَّحَرَةُ فَيَعْرِفُونَ حُدُودَ صِنَاعَتِهِمْ؛ فَلَمَّا رَأَوْا الْعَصَا تَلْقَفُ مَا صَنَعُوا، سَقَطَتِ الْحُرْفَةُ وَبَقِيَتِ الْحَقِيقَةُ.

وَيَا لَهَا مِنْ سُرْعَةٍ فِي التَّحَوُّلِ! خَرَجُوا فِي الصَّبَاحِ طَامِعِينَ فِي أَجْرِ فِرْعَوْنَ، وَدَخَلَ الْإِيمَانُ قُلُوبَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَنْتَصِفَ النَّهَارُ، ثُمَّ صَارُوا مُسْتَعِدِينَ لِلْمَوْتِ فِي سَبِيلِهِ.

هذا يعلمنا ألا نحكم على الناس من صفوفهم الحالية وحدها. فقد يقف الإنسان اليوم في معسكر الباطل، ثم تمر بقلبه لحظة صدق تنقله إلى الصف الآخر كله. القلوب بين يدي الله، ومن ظننته أداة للطغيان قد يصبح في لحظة شاهداً عليه.

﴿أَمَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾.

قبل قليل كان الخطاب: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾؛ وها هم خبراء الساحة يجيبون بأجسادهم قبل ألسنتهم: رب هارون وموسى.

وقدموا هارون في الذكر، فلم يغضب موسى، لأن المسألة ليست ترتيب الأسماء، بل بلوغ الإيمان. إن من اصطنعه الله لنفسه لا ينافس أخاه على موضعه في عبارة المؤمنين.

آمنتم له قبل أن آذن لكم؟

﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّي أَنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾

لم يفزع فرعون من إيمانهم وحده، بل من أنهم آمنوا قبل أن يأذن. فالطاغية يرى القلوب ممتلكات تابعة لسلطانه؛ لا يحق للإنسان أن يعتقد، أو يراجع، أو يختار إلا بإذن منه.

هنا تنكشف حقيقة الاستبداد: إنه لا يريد الطاعة في الظاهر فقط، بل يطلب الوصاية على الضمير. يغضبه أن يكتشف الناس أنهم قادرون على قول: لا، وأن في داخلهم مساحة لا تصل إليها أوامره.

ثم اخترع التفسير سريعًا:

﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾.

قبل قليل كان موسى غريبًا جاء ليخرجهم من أرضهم، والآن صار فجأة رئيس السحرة ومعلمهم! لا يهتم الطغيان أن تتناقض الرواية مع سابقتها؛ المهم أن تنتج تفسيرًا يحجب الحقيقة عن الجمهور.

فالسلطة التي لا تستطيع إنكار وقوع التحول تتهم صدقه: مؤامرة مرتبة، واتفاق سابق، وخيانة داخلية. كل ذلك حتى لا يعترف الناس بأن الآية هزمت السحر.

ثم تحولت الحجة إلى تهديد:

﴿فَلَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صُلْبَتَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾.

حين يعجز الباطل عن حكم العقل، ينتقل إلى تعذيب الجسد. إنه لا يملك ردًا على السجود، فيهدد الأطراف التي حملت أصحابها إليه.

﴿وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾.

أينما: أنا أم رب موسى؟ ما زال يقيس الحقيقة بالسوط، ويظن أن شدة الألم تمنح صاحبها مقام الربوبية. لكن السحرة الذين كانوا يخشونه قبل دقائق رأوا الآن عالمًا أكبر من قصره وعذابه؛ فلما اتسعت الآخرة في قلوبهم صغر فرعون.

المشهد التاسع عشر

لن نُؤثِرَكَ على ما جاءنا من البَيِّنَات

اللحظة التي هُزم فيها فرعون قبل أن يغرق

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا
فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾

قبل قليل كانوا يسألون: هل لنا لأجرًا إن كنا نحن الغالبين؟
والآن يقولون: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾.

ما الذي حدث في هذه اللحظات القليلة؟

لقد انتقل مركز الثقل في قلوبهم من الدنيا إلى الله. وحين
تتغير مركزية القلب، تتغير قيمة الأشياء كلها: الأجر الذي
كان عظيمًا صار تافهًا، والقرب من فرعون الذي كان أمنية
صار عارًا، والموت الذي كان فزعًا صار جسرًا إلى
المغفرة.

﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ﴾

هذه هي الحرية في أكمل صورها: أن يعرض الطاغية
جسدك للعذاب، فلا يستطيع أن يجعلك تؤثره على الحقيقة.

قد يملك القرار في شأن حياتهم، لكنه فقد سلطانه على ميزانهم الداخلي. وهنا هُزم فرعون هزيمته الحقيقية. فالحاكم لا يكون طاغية بقوة سوطه وحدها، بل بخوف الناس منه؛ فإذا تحررت القلوب، صار السوط عاجزاً عن إنتاج الطاعة وإن استطاع إنتاج الألم.

﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾.

استحضروا الله بالقسم، واستحضروا معنى الفطرة: أنت لم تخلقنا يا فرعون، فكيف نبيع رضا خالقنا بإذنك؟ الذي فطر أجسادنا هو أحق بها، وإن قطعها.

ثم وضعوا سلطان فرعون في حدوده:

﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

يمكنك أن تحكم في الجزء القصير، لا في المصير كله. تستطيع أن تنهي أياماً معدودة، ولا تستطيع أن تمنع حياة لا تنتهي. سلطانك ينتهي عند حافة الموت، وهناك يبدأ سلطان الجزاء الذي لا تملك فيه أمراً.

ما أعظم الإنسان حين يعرف حدود من يخيفه! كثير من الخوف يتضخم لأننا نمح المخلوق في وعينا سلطة لا يملكها. فإذا تذكرنا أن أقصى ما يفعله واقع داخل الدنيا، وأن الآخرة لله، انكسر صنم الرهبة.

إنا آمنة بربنا ليغفر لنا خطايانا

﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾

لم ينشغلوا ببطولة موقفهم عن ذنوب ماضيهم. في اللحظة التي ثبتوا فيها أمام التهديد، لم يقولوا: لقد أصبحنا أبطالاً نستحق الثناء، بل قالوا: نرجو أن يغفر لنا.

هذا هو الإيمان الصادق: يمنح صاحبه قوة أمام الطغاة، وتواضعاً أمام الله. لا تجتمع فيه عزة الموقف مع عبادة الذات؛ بل كلما عظم ثباته ازداد شعوره بفضل من ثبته.

﴿لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾.

كان لهم ماضٍ في تضليل الناس وخدمة القصر، لكنهم لم ييأسوا من أن تمحو لحظة الصدق سنوات الغفلة. فباب الله لا يسأل الداخلين إليه كم تأخرتم فحسب؛ بل ينظر كيف دخلتم.

وذكروا: ﴿وَمَا أَكْزَمْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾، فكشفوا جانبًا من استغلال السلطة لمهاراتهم وإكراههم على تسخيرها في تثبيت الباطل. ومع ذلك لم يعفوا أنفسهم من طلب المغفرة؛ فالإنسان الصادق لا يجعل ضغط الواقع مبررًا دائمًا يهرب به من مسؤوليته.

ثم ختموا بالجواب المباشر على تهديده:

قال فرعون: ﴿أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾.
وقالوا: ﴿وَاللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

أنت تتحدث عن شدة عذابك؛ ونحن نتحدث عن خير الله.
أنت تهدد بما ينتهي؛ ونحن نتعلق بمن يبقى.
أنت تريد أن تملأ وعينا بالملك؛ وقد امتلأت قلوبنا بوعدده.

إن معرفة أن الله خير وأبقى تنزع من الدنيا قدرتها على شراء الإنسان. فما عند فرعون مهما كثر ليس خيرًا مما عند الله، وما عنده مهما طال ليس أبقى.

المشهد العشرون

من يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا

المصائر التي ظهرت للسحرة خلف ستار الساحة

﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ۚ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾

انتقلت السورة من ساحة المواجهة إلى ساحة المصير.
فالمشهد الحقيقي ليس ما يراه الجمهور في يوم الزينة، بل
ما يظهر يوم يأتي كل إنسان ربه.

﴿مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾

كلنا آتوه، لكن السؤال: بأي قلب نأتي؟ وبأي صحيفة؟
الطاغية والمستضعف، والساحر والنبي، ومن صَفَّقَ ومن
اعترض؛ ستسقط المسافات المصنوعة في الدنيا، ويقف
الجميع أفرادًا.

المجرم الذي أصر على جرمه له جهنم:

﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾

لا موت يريحه، ولا حياة تحمل معنى الحياة. إنها صورة الوجود الذي فقد كل منافذ الرجاء؛ جزاء من اختار في الدنيا أن يطفئ نور الفطرة ويستعمل حياته في حرب الحق والخلق.

ثم يقابل ذلك المصير:

﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾.

لم يفصل القرآن بين الإيمان والعمل. فالإيمان ليس انفعالاً لحظياً ثم تعود الحياة كما كانت؛ إنه حقيقة تعيد تشكيل السلوك. آمن السحرة، فكان أول عمل لإيمانهم الثبات ورفض بيع الحق.

﴿قَالُوا لَنْكُ لَهِمُ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى﴾.

كان السحرة يطمعون في منزلة قريبة من فرعون: ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾. فلما تركوا قربه لله، وعدهم الله بالدرجات العلى. استبدلوا قرباً زائفاً من عرش فانٍ بقرب كريم في دار البقاء.

ما ترك أحد شيئاً لله إلا عوّضه خيراً منه، لكن العوض لا يأتي دائماً في العملة نفسها ولا في الموعد الذي ينتظره الإنسان. قد يتركون الحياة نفسها، فيعطيه الله حياة لا تنفد؛ ويتركون منزلة في القصر، فيعطيه الدرجات العلى.

جنات عدن تجري من تحتها الأنهار

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾

في مقابل التهديد بالصلب في جذوع النخل، تفتح الآية لهم جنات عدن.

وفي مقابل الدم الذي قد يجري من أجسادهم، تجري من تحتهم الأنهار.

وفي مقابل أيام تنتهي تحت سلطان فرعون، يأتي الخلود الذي لا يملك فرعون أن ينتزع منه لحظة.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾: إقامة لا يعقبها طرد، وأمان لا يتهدده سلطان، وحياة لا يمر في أطرافها شبح الفناء.

ثم جمعت الآية سر الرحلة كلها: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾.

فرعون قال للسحرة: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى﴾.
والله يقول: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾.

الاستعلاء أن تصعد فوق الناس، والتزكي أن تصعد فوق دناءة نفسك.

الاستعلاء يطلب أن تتحني لك الجباه، والتزكي يجعل جبهتك تتحني لله.

الاستعلاء يبني قصرًا خارجك ويترك الخراب في داخلك، والتزكي يعمر قلبك ولو هُدم من حولك كل شيء.

خرج السحرة إلى الساحة يريدون الغلبة، فعادوا - أو مضوا شهداء - وقد عرفوا أن المعركة الكبرى لم تكن بين عصا وحبال، بل بين نفس تتطلع إلى العلو ونفس تطهرت بالسجود.

وهكذا تنتهي ساحة الزينة بسقوط الزينة كلها. سقطت هيبة السحر، وسقط احتكار فرعون للقلوب، وسقط وهم أن الإنسان لا يتغير. وبقيت في وسط المشهد جباه لامست التراب، فارتفعت إلى الدرجات العلى.

لقد أراد فرعون أن يجعل من يوم الزينة عيدًا لسلطانه، فجعل الله منه يوم ميلاد الإيمان في قلوب السحرة.

وسيخرج موسى بعد ذلك ببني إسرائيل ليلاً، وسيقف أمام البحر، وخلفه فرعون بجنوده. لكن من رأى العصا تبتلع

الكيد ينبغي أن يعلم أن البحر أيضاً ليس نهاية؛ فما دام الأمر لله، فقد تتحول المياه إلى طريق، ويتحول الطريق نفسه بعد عبور المؤمنين إلى قبر للطغيان.

المشهد الحادي والعشرون

واضرب لهم طريقًا في البحر يبسًا

حين يصنع الله في قلب المستحيل طريقًا

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا
فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَخْشَى﴾

جاء الأمر بالخروج ليلاً؛ لأن الطغيان لا يطلق ضحاياه طوعاً، ولأن الحرية حين تسترد نفسها قد تبدأ خطواتها الأولى في الظلام.

﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾.

قال الله: بعبادي، ولم يقل: بقومك فحسب. كانوا في أعين فرعون يداً عاملة، وأجساداً مستباحة، وطبقةً وُلدت لتُستعبد؛ لكن السماء أعادت إليهم اسمهم الحقيقي: عباد الله.

وهذه هي بداية التحرر: أن يعرف الإنسان لمن ينتمي. من استقرت عبوديته لله لا يقبل أن يكون عبداً لهوى أو طاغية أو مال أو خوف. فكل استعباد بشري يقوم أولاً على نسيان الإنسان لسيده الحق.

خرجوا في الليل يحملون آثار سنين طويلة من الذل. وليس الخروج من أرض العبودية هو الخروج الأصعب؛ فالأشد أن تخرج العبودية من النفس. قد تتحرر الأقدام وتبقى الأرواح معلقة بالسوط، تخاف الحرية لأنها لم تألف مسؤوليتها، وتحن إلى السجن لأنه يمنحها طعامًا مألوفًا.

ولهذا لم تكن نجاة بني إسرائيل من فرعون نهاية التربية، بل بدايتها.

بلغ موسى وقومه البحر، ولحق بهم فرعون. الماء أمامهم، والعدو خلفهم، ولا طريق في ميزان الحس. هنا تبلغ الأزمة حدها الذي تسقط عنده كل الحيل البشرية، فلا يبقى إلا الأمر الإلهي:

﴿فَاضْرِبْ لَهُم مَّطَرًا مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً يَّسْرًا﴾

لم يقل: انتظر حتى ينحسر البحر، بل اضربه. كانت العصا سببًا مأمورًا، أما الذي شق الماء فهو الله. البحر الذي لا يملك الإنسان أن يثبت فوق سطحه صار طريقًا يابسًا تحت قدميه.

يا لبلاغة القدرة: لم يجعل الله النجاة على شاطئ البحر، بل في داخله. لم يزل المانع من أمامهم فقط؛ حوّل المانع نفسه إلى سبيل.

كم من محنة نظن أن النجاة منها لا تكون إلا بزوالها، بينما يجعل الله النجاة أحياناً في عبورها! قد لا يرفع البحر، لكنه يشق لك فيه طريقاً. وقد لا يبعد الخطر، لكنه يمنحك في قلبه موضع أمن.

﴿لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَخْشَى﴾.

لا تخف أن يلحق بك العدو، ولا تخش البحر من حولك. فالخطر ان اللذان يحاصرانك كلاهما في قبضة ربك: ما وراءك لا يدركك، وما أمامك لا يغرقك.

حين يقول الله: لا تخف، فليست الكلمة دعوة إلى تجاهل الواقع، بل كشفاً لحقيقة أكبر منه. نعم، فرعون خلفك؛ لكن الله أقرب علمًا وحفظًا. ونعم، الماء من حولك؛ لكنه واقف عند الحد الذي رُسم له.

المشهد الثاني والعشرون

فاتبعهم فرعون بجنوده

الغرور الذي دخل الطريق ولم يرَ الفخ

﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۚ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾

رأى فرعون الطريق مفتوحًا في البحر، لكنه لم يرَ أن الطريق الذي فُتِحَ للمؤمنين لم يُفَتَحَ له. ظن أن ما استطاع موسى دخوله يستطيع هو اقتحامه، ونسي أن الأمان ليس في صورة الطريق وحدها، بل في إذن الله لمن يسلكه.

دخل بجنوده مدفوعًا بالغرور. كان يستطيع أن يرى في انشقاق البحر آية أخيرة توقظه، لكنه رأى فيها فرصة جديدة للمطاردة. وهكذا يفعل العناد حين يفسد البصيرة: يحوّل التحذير إلى إغراء، والآية إلى مادة لمزيد من الطغيان.

﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾.

تترك العبارة للمهابة صمتها. لم تفصل مشهد الغرق، وكأن هول ما غشيهم أكبر من أن يحتاج إلى وصف. عاد الماء إلى طبيعته بأمر الله، فصار الطريق الذي كشف نجاة المستضعفين خاتمة المستكبرين.

البحر واحد، لكنه كان لهؤلاء نجاة ولهؤلاء هلاكًا. ليست الأشياء في ذاتها هي التي تمنح الأمان، بل علاقتك بالله وموقفك من أمره. قد يمر المؤمن في الموضع نفسه الذي يهلك فيه الطاغية؛ لأن العبرة ليست بالمكان وحده، بل بالهداية التي تقود إليه.

ثم تأتي الشهادة التي تهدم الدعاية الفرعونية كلها:

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾.

كان يقول لهم إنه يرشدهم إلى سبيل الرشاد، فقادهم إلى قاع البحر. وهذه نهاية كل قيادة تفصل نفسها عن هدى الله: قد تعد الناس بالمجد، ثم تسوقهم إلى الهلاك؛ وقد تزين لهم الاستعلاء، ثم تجعلهم وقودًا لبقاء فرد واحد.

إن الطاغية لا يغرق وحده؛ يحمل معه من سلّموا له عقولهم. ولذلك فالمسؤولية لا تقع على المستبد وحده، بل على كل من ألغى ضميره، وتبع دون بصيرة، وصفق للقائد وهو يسوقه إلى الماء.

لم يقل القرآن: ضل فرعون فقط، بل ﴿أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ﴾؛ فالفساد حين يمتلك السلطة يصبح مؤسسياً، يصنع لغةً ومفاهيم ومسارات تقود أمة كاملة في الاتجاه الخطأ.

﴿وَمَا هَدَى﴾: كلمة قصيرة تسقط كل ألقابه. فما قيمة ملك واسع إذا كانت نهايته إضلال من انتمونك؟ وما قيمة أن يتبعك الناس إذا كنت لا تعرف إلى أين تأخذهم؟

لقد غرق فرعون في الماء، لكنه كان قبل ذلك غارقاً في وهمه. وما غرق البحر إلا الصورة الأخيرة لغرق القلب.

المشهد الثالث والعشرون

قد أنجيناكم من عدوكم

حين يعدد الله على الناجين أبواب نعمته

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ
الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى﴾

خرجوا من البحر، وجثث الخوف القديم خلفهم. رأوا بأعينهم
الطاغية الذي كان يملك موتهم عاجزاً عن إنقاذ نفسه. وكان
المتوقع أن تمتلئ القلوب يقيناً لا يتزلزل.

ناداهم الله مذكراً بثلاث نعم كبرى:

أنجاهم من عدوهم، وواعدهم جانب الطور، وأنزل عليهم
المن والسلوى.

النجاة حررت الأجساد.

والمواعدة بالوحي هدت الأرواح.

والمن والسلوى حفظا الحياة.

فَاللّٰهُ لَا يَخْرِجُ عِبَادَهُ مِنَ الْاَسْرِ ثُمَّ يَتْرَكُهُمْ فِي الْعِرَاءِ؛
يَحْرُرُهُمْ، وَيُعَلِّمُهُمْ، وَيَرْزُقُهُمْ. وَهَذِهِ الْحَرِيَّةُ الْكَامِلَةُ:
خُلَاصٌ مِنَ الْقَهْرِ، وَاتِّصَالٌ بِالْوَحْيِ، وَكِفَايَةٌ مِنَ الرِّزْقِ.

﴿قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَذُوكُمْ﴾.

نسب النجاة إليه، مع أنهم ساروا وضرب موسى البحر؛ لأن
السعي منهم، أما خلق النتيجة فمن الله. ولو ضرب موسى
البحر ألف مرة بلا أمر الله ما انشق.

ثم نقلهم من مشهد البحر إلى الطور:

﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾.

لم تكن غاية الخروج أن يعيشوا بلا فرعون فحسب، بل أن
يعيشوا لله. إزالة الطاغية لا تكفي إن لم يُبَيَّنْ في الفراغ ميزان
من الوحي؛ وإلا صنع الناس بأهوائهم فراعنة صغاراً يحمل
كل واحد منهم سوطاً في نفسه.

التحرر من شيء يجب أن يتبعه التحرر إلى غاية: من
عبودية فرعون إلى عبودية الرحمن، ومن قانون الهوى إلى
هدى الكتاب.

ثم: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾.

في الصحراء حيث تنعدم أسباب الزرع، جاءهم الرزق من حيث لا يحتسبون. أراد الله أن يربي فيهم الثقة بعد حياة طويلة ربطت خبزهم بيد المستعبد.

فالطاغية لا يملك الناس بالسوط وحده؛ يملكهم أيضاً حين يقنعهم أن أرزاقهم بيده. فإذا خرجوا منه بقي خوف الجوع صوته الأخير في نفوسهم. فجاء المن والسلوى ليقول لهم: الذي أطعمكم في الصحراء قادر أن يغنيكم عن موائد الذل.

ما أكثر من يخرج من سلطان ظالم بجسده، ثم يعود إليه بروحه خوفاً على الرزق! ولو أيقن أن خزائن الله أوسع من أبواب البشر، لما باع كرامته بلقمة كتبها الله له قبل أن يولد.

كلوا من طيبات ما رزقناكم

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلُّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾

أباح لهم الطيبات، لكنه حذرهم من الطغيان فيها. فالنعمة التي تقود إلى الشكر ترفع صاحبها، والنعمة نفسها إذا تحولت إلى جشع وتمرد قد تكون طريق هبوطه.

﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾.

حتى الطعام يمكن أن يصبح ميدانًا للطغيان: بالإسراف، والجحود، والاحتكار، والتعدي، وتحويل الرزق من جسر إلى الشكر إلى وقود للشهوة.

إن الإنسان لا يطغى حين يُحرم فقط، بل قد يطغى حين يُعطى. وربما كان اختبار العطاء أدق؛ لأن الألم يذكر الإنسان بحاجته، أما النعمة فقد توهمه الاستغناء.

ثم قال سبحانه:

﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾.

إذا حل غضب الله لم تنفع نعمة ولا قوة ولا تاريخ سابق من النجاة. ليس الانتساب إلى قوم نجاهم الله من فرعون ضمانًا لمن يعصي؛ فالعبرة بالوفاء لا بالذكريات.

﴿وَمَنْ يَحِلِّلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾.

هوى بعد أن ظن أنه يصعد، وسقط ولو كان في عين الناس مرتفعًا. فالهبوط الحقيقي ليس فقد المكانة، بل سقوط الإنسان من رضوان الله.

وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾

بعد ذكر الغضب يفتح الله بابًا واسعًا للرجوع. فالقرآن لا يترك القلب بين أنياب الخوف؛ يريه العاقبة ثم يدلّه على الطريق.

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾.

لم يقل: غافر فحسب، بل جاء بصيغة تفيض بالكثرة. مهما تكررت العثرة، فإن باب المغفرة لا يضيق بمن صدق في العودة. الذنب محدود بعمر العبد، ومغفرة الله لا يحدها شيء.

لكن التوبة ليست كلمة تُقال مع الإصرار؛ رسمت الآية لها مسارًا: ﴿تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾.

تاب: رجع عن طريقه القديم.
وآمن: أعاد بناء القلب على اليقين.
وعمل صالحًا: صدّق التحول بالفعل.
ثم اهتدى: ثبت على الطريق ولم يجعل التوبة ومضة عاطفية تنطفئ.

﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ تحمل معنى الاستمرار؛ فليس الشأن أن تعرف الطريق لحظة، بل أن تظل تعود إليه كلما سحبتك النفس بعيدًا.

ما أرحم الله! يذكر قومًا ستقع منهم فتنة العجل بعد النجاة، ثم يسبق مشهد خطيئتهم بهذا الإعلان: ﴿وَإِنِّي لَعَفَّارٌ﴾. كأن الرحمة تقف قبل الذنب وبعده، تنادي العبد ألا يجعل سقوطه حجة على البقاء في الأرض.

المشهد الرابع والعشرون

وما أعجلك عن قومك يا موسى؟

شوق المحب الذي سبق قومه إلى الموعد

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴿١٠﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءِ عَلَيَّ
أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾

ترك موسى قومه خلفه قليلاً، وأسرع إلى موعد ربه. فسأله
الله:

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾.

يعلم الله ما أعجله، لكنه سؤال تربية؛ فالشوق الصادق لا
يعفي صاحب الرسالة من مراعاة من استرعاه الله. قد يندفع
القلب إلى عبادة يحبها، بينما تكون الأمانة في لحظته أن
يبطئ حتى يستصحب الضعفاء.

قال موسى: ﴿هُمُ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي﴾؛ أي قرييون يتبعونني.
ثم كشف سر العجلة: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾.

ما أجمل هذا الاندفاع! لم يعجل إلى مال ولا ملك، بل إلى رضا الله. كان قد ذاق في الوادي حلاوة النداء، فصار الموعد عنده أحب من راحة الطريق.

إن للمحبة عجلة لا تشبه عجلة الهوى. المحب لا يؤدي الطاعة كعبء يريد التخلص منه، بل يسبق إليها لأن قلبه يرى وراءها رضا محبوبه.

لكن حتى النية الجميلة تحتاج إلى ميزان الشرع والحكمة؛ فموسى مسؤول عن أمة حديثة الخروج من الاستعباد، لم تنضج جذور توحيدها بعد. وقد ترك فيها هارون نبياً، ومع ذلك استطاعت الفتنة في غيبته القصيرة أن تفتح جرحاً عميقاً.

هذه من أشد حقائق التربية: لا تكفي المعجزة وحدها لصناعة الإنسان. قوم رأوا البحر ينشق، ثم عبدوا عاجلاً. رأوا فرعون يغرق، ثم صنعت أيديهم صنماً.

الرؤية تبهر، لكنها لا تغني عن تزكية طويلة تعيد بناء الداخل.

فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾

هبط الخبر على قلب موسى وهو في مقام القرب: القوم الذين عبر بهم البحر، والذين رأوا الآيات، قد دخلوا في الفتنه بعد غيابه.

﴿فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾: اختبرنا حقيقة ما في قلوبهم. فالامتحان لا يخلق دائماً الضعف من عدم، بل يكشف ضعفاً كان مستتراً تحت هيبة الأحداث.

﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾.

شخص واحد استطاع أن يستثمر بقايا الجاهلية في النفوس. فالسامري لم يزرع قابلية العجل من الصفر؛ وجد فيهم حنيئاً إلى المحسوس، وضعفاً في احتمال غيب لا يرونه، وذاكرة عاشت طويلاً بين أصنام القوم.

الطاغية قد يغرق، لكن منطقه قد يبقى في نفوس ضحاياها. فقد اعتاد بنو إسرائيل إلهاً يُرى في تماثيل المصريين، وسلطاناً مجسداً في فرعون. فلما غاب موسى الذي يتلقون من خلاله الخطاب، بحثت نفوس ضعيفة عن معبود ملموس.

إن هدم الأصنام الخارجية أسرع من هدم حاجتها في الداخل.
قد تكسر الحجر في لحظة، لكنك تحتاج سنوات لتكسر في
النفس خوفها من الغيب وتعلقها بما تلمس.

المشهد الخامس والعشرون

فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً

وجع المرَبِّي حين يرى الهداية تُستبدل بالضلال

﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفْتَالُ عَلَى كُفِّ الْعَهْدِ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾

عاد موسى يحمل الألواح، وفي قلبه نار من الحزن والغضب.

﴿غَضْبَانَ أَسِفًا﴾.

لم يكن غضبه لنفسه؛ لم يغضب لأنهم لم ينتظروه بموكب، بل لأنهم نقضوا التوحيد بعد أن رأوا من آياته ما رأوا. والأسف غضب ممزوج بالحزن؛ غضب المحب الذي لا يطيق أن يرى من يحب يهلك نفسه.

المرَبِّي الصادق لا يتعامل مع انحراف الناس كمسألة نظرية باردة. يؤلمه أن يرى القلب الذي تعهده بالهداية يعود إلى سجنه، وأن يرى الناجي من البحر يغرق في صنم صنعته يداه.

قال: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا؟﴾

ماذا رأيتم من ربكم حتى استبدلتموه بعجل؟ أنجاكم، وواعدكم، ورزقكم. هل وجدتم في وعده سوءاً؟ إن الذنب هنا ليس مخالفة مجردة، بل خيانة لذاكرة الإحسان.

كثير من المعصية يبدأ حين تُمحي النعم من الذاكرة. لو ظل القلب حاضرًا مع ما أولاه الله، لاستحيا أن يبيع قربه بلذة أو وهم.

﴿أَفْطَلْ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ؟﴾

لم تمر أجيال حتى تُنسى الآيات؛ فما يزال أثر البحر قريبًا. لكن القلب إذا غفل قد تفصله عن أعظم النعم لحظة واحدة، كما أن القلب الحي قد يستحضر وعدًا مضى عليه العمر كأنه يسمعه الآن.

﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَجِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ؟﴾

أيُّ عاقل يريد الغضب؟ لكن من سلك طريق أسبابه كان كمن أراحه، وإن ادعى بلسانه غير ذلك. فنحن لا نعرف بأمانينا وحدها، بل بالطرق التي نختارها.

ما أخلفنا موعدك بملكننا

﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾

بدأ الاعتذار بتخفيف المسؤولية:

﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا﴾؛ أي لم نفعل ذلك بطلاننا واختيارنا المستقل، ولكن وقعت علينا ظروف وأحمال، وجاء السامري ففعل.

وهكذا تتوزع الخطيئة بين الأعذار حتى تكاد تضيع فاعليتها البشرية: ضغط الجماعة، وقوة المضل، وميراث البيئة، وبريق الزينة. وهذه كلها مؤثرات حقيقية، لكنها لا تلغي مسؤولية القلب الذي استجاب.

كان معهم من حلي القوم ما وصفوه بالأوزار؛ لأنها لم تبق زينة محايدة، بل صارت مادة لصنع الوثن. فما أخطر المال حين يحمل معه روح البيئة التي جاء منها! قد يخرج الإنسان من أرض الفساد، لكنه يحمل زينتها في متاعه، ثم تتحول الزينة في لحظة ضعف إلى صنم.

لم يكن العجل من تراب الصحراء، بل من ذهب الحضارة المستعبدة. وكأنهم خرجوا من مصر بأجسادهم، لكن مصر خرجت معهم في حليهم.

كل ما لا يُطَهَّر من آثار الماضي قد يعود في صورة معبود جديد.

فأخرج لهم عجلًا جسدًا له خوار

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾

صاغ السامري الحلي عجلًا جسدًا له صوت، فافتتنوا بالحركة والخوار. لم يسألوا: هل خلق؟ هل يرزق؟ هل يعلم السر وأخفى؟ اكتفوا بأنه يملك صورة تلمع وصوتًا يُسمع.

إن الوثنية تبدأ حين يهب الإنسان المظهر أكثر مما يحتمل. جسد وصوت؛ فيتخيل وراءهما قدرة ومعنى. وكم من عجل في حياة البشر لا يملك إلا البريق والضجيج، ثم تُعَلَّق به القلوب!

قالوا: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾.

قلبوا الحقيقة قلباً عجيباً: موسى الذي ذهب إلى ميقات ربه هو الذي نسي، وهم الذين وجدوا الإله! هكذا لا يكفي الضلال بأن ينحرف، بل يعيد كتابة القصة حتى يصير المهتدي في روايته تائهاً، والتائه مكتشفاً للحقيقة.

إن الصنم لا يُعبد إلا بعد أن تُصنع حوله حكاية. الذهب وحده لا يكفي؛ يحتاج إلى خطاب يقده، وإلى جماعة تكرر، وإلى تفسير يجعل حوار العجل وحيًا.

أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً؟

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾

يرد القرآن الوثنية إلى امتحان فطري بسيط: كلموه؛ هل يجيب؟ اطلبوا منه أن يدفع عنكم ضرراً أو يجلب نفعاً؛ هل يملك؟

﴿أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾.

له حوار، لكن ليس له جواب. والفرق عظيم بين الصوت والكلام: الصوت قد يثير الحواس، أما الكلام فيكشف علماً وقصدًا ومعنى.

وهنا يفضح القرآن عبادة الضجيج. ليس كل من علا صوته يملك جوابًا، ولا كل ما يملأ السمع يستحق أن يملأ القلب.

﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾.

المعبود الذي صنعتهم أيديهم محتاج إليهم في وجوده؛ لولا ذهبهم وصياغة السامري ما كان له جسد. فكيف يعبد الصانع مصنوعة؟

كل وثن حديث يحمل المفارقة نفسها: يصنع الإنسان المال، ثم يصير عبدًا له؛ ويبني المنصب، ثم يبيع ضميره ل يبقى فيه؛ ويصنع الصورة أمام الناس، ثم يقضي عمره خائفًا من سقوطها.

الوثن ليس دائمًا تمثالًا في معبد؛ قد يكون شيئًا لا يملك لك ضررًا ولا نفعًا، لكنك تمنحه من خوفك وحبك وطاعتك ما لا ينبغي إلا لله.

المشهد السادس والعشرون

يا قوم إنما فُتِنْتُمْ بِهِ

هارون وحده أمام تيار الفتنة

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾

لم يصمت هارون. وقف أمام الجموع يردهم إلى أصلهم:

﴿إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾.

العجل ليس اكتشافاً، بل امتحان. وليس كل ما يدهشك آية هدى؛ قد يكون لمعانه اختباراً لبصيرتك. الأشياء لا تُعرف بآثرها الأول في الحواس، بل بحقيقتها في ميزان الوحي.

ثم لم يقل لهم: إن ربكم المنتقم، مع استحقاق الموقف للوعيد؛ بل قال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾.

يا لجمال الدعوة! يذكرهم بالرحمن وهم يفرون منه إلى عجل. كأن باب العودة لم يغلق، وكأن الرحمة تناديهم من وراء انحرافهم: ربكم ليس هذا الجسد الصامت؛ ربكم الرحمن الذي أنجاكم ورزقكم وغفر لكم.

واختيار اسم الرحمن هنا يفضح قسوة الوثن. العجل لا يسمعهم ولا يرحمهم، بينما ربهم الذي عصوه ما زال يعرفهم إلى نفسه باسم الرحمة.

﴿فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾.

الهداية تحتاج في زمن الفتنة إلى اتباع واضح، لا إلى حياء يراقب المعركة بين التوحيد والوثن من بعيد. حين تصبح الحقيقة مهددة، قد يكون الصمت شكلاً من أشكال تقوية الباطل.

لكنهم أجابوه بإصرار الجماعة:

﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾.

لن نزال ملازمين له حتى يعود موسى. كأن حضور النبي لا هدى الوحي هو الذي يردعهم. وهذه علامة خلل عميق: أن يتعلق الناس بالشخص حتى إذا غاب غابت معهم مبادئه.

لم يفهموا أن رب موسى حاضر وإن غاب موسى، وأن الحق لا يختفي برحيل حامله.

إن التربية الناجحة لا تصنع أتباعاً لا يستقيمون إلا تحت عين المربي، بل تصنع فيهم عيناً باطنة تراقب الله في غيابه.

أما إذا كان إيمان الجماعة مربوطاً بحضور القائد، فهي لم
تتعبد لله بعد على وجه الرسوخ؛ لقد استبدلت رقابة الطاغية
برقابة المربي.

المشهد السابع والعشرون

يا هارون ما منعك؟

غضب موسى بين حرارة الغيرة وعدل التبيين

﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۖ أَأَلَّا تَتَّبِعَنِ
أَفْعَصَيْتَ أَمْرِي﴾

أقبل موسى على أخيه وقلبه يحترق. كان قد استخلفه، وأوصاه بالإصلاح، فلما رأى العجل والجموع حوله، ظن أن هارون قصر في مقاومة الفتنة أو في اللحاق به ليخبره.

هذا غضب صاحب الرسالة حين يرى أصل الدين مهدداً. لم تكن القضية خطأً فرعياً، بل انقلاباً على التوحيد الذي خرجوا من أجله.

لكن الغضب، حتى إذا كان لله، يحتاج إلى بيان الحقيقة كاملة. فربما رأى الإنسان النتيجة ولم يعرف الصراع الذي سبقها، وحكم على من بقي في الميدان من هيئة المشهد الأخير، لا من حجم ما بذله لمنعه.

قال هارون: ﴿قَالَ يَا ابْنَ أُمِّ لَا تَأْخُذْ بِلِخَيِّتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾.

ناداه: يا ابن أم، يستدعي رحم الأخوة في لحظة الغضب. مع أنه أخوه من أبيه وأمه، ذكر الأم لأن اسمها أرق على القلب وأقرب إلى إخماد النار.

لم يقل هارون إنه رضي بالعجل، فقد أنكر عليهم من قبل. لكنه خشي إن قاتلهم أو فارقهم أن تنقسم الجماعة انقسامًا لا يجتمع بعده شملها، وأن يقول له موسى: لم تحفظ وصيتي.

لقد كان أمام مفسدتين: بقاء الفتنة وقتًا حتى يرجع موسى، أو انفجار اقتتال يمزق القوم. فاختر ما رآه أقل ضررًا، وظل ينصحهم ويعلن لهم أن ربهم الرحمن.

وهنا تكشف السورة أن العاملين للحق قد يختلفون في تقدير الموقف، مع اتفاقهم على أصل الحق. موسى رأى الحزم العاجل، وهارون رأى حفظ الجماعة حتى يعود صاحب الرسالة. وليس كل اختلاف خيانة، ولا كل تباين في الاجتهاد ضعفًا في المبدأ.

كم ظلمت الحركات رسلها المخلصين حين حاكمتهم إلى
النتائج وحدها! قد يثبت الرجل في الميدان وحده، ويقاوم ما
يستطيع، ثم يأتي من لم يشهد التفاصيل فيتهمه بالتقصير لأن
الباطل لم يسقط.

إن العدل يقتضي أن نسمع قبل أن نحكم، وأن نميز بين من
صنع الفتنة، ومن عجز عن وقفها كاملة وهو يقاومها.

المشهد الثامن والعشرون

فما خطبك يا سامري؟

انتقال المساءلة من المخدوعين إلى صانع الخديعة

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾

بعد أن استمع إلى هارون، توجه موسى إلى رأس الفتنة. لم يكتف بعلاج الأتباع، بل ذهب إلى الصانع الذي استثمر ضعفهم.

﴿فَمَا خَطْبُكَ؟﴾

ما شأنك؟ وما الذي حملك على هذا الفعل؟ إنه سؤال مساءلة يكشف أن الجريمة الفكرية لا تُعالج بتحطيم الرمز وحده؛ لا بد من تفكيك المنطق الذي صنعه.

فالفتن لا تظهر من فراغ. وراءها شخص أو خطاب يفهم مواطن الضعف في الجماعة، ويعيد تشكيلها في صورة مشروع. السامري رأى حنينهم إلى المعبود المحسوس، وجمع له ذهبًا وصوتًا وقصة.

بصرت بما لم يبصروا به

﴿قَالَ بَصَرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي﴾

بدأ السامري حديثه بدعوى التمييز:

﴿بَصَرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾.

وهكذا تبدأ انحرافات كثيرة: أنا رأيت ما لم يره الآخرون، وفهمت ما لم يفهموه، ولي سر لا يملكه عامة الناس. تتحول الدعوى الروحية أو المعرفية إلى حصانة تمنع المساءلة.

ثم ذكر أنه قبض قبضة من أثر الرسول فنبذها. وقد اختلف المفسرون في تعيين المراد بالرسول والأثر، وأشهر الأقوال إنه رأى جبريل عليه السلام فأخذ من أثر فرسه. لكن السورة لا تجعل مركز العبرة في تفاصيل المادة، بل في انحراف الإنسان حين يوظف أثرًا متصلًا بعالم الآيات لصناعة وثن.

قد يأخذ المنحرف شيئاً من الحق، ثم يضعه في بناء باطل، فيغدو تضليله أشد لأن في كلامه قبضة من نور ممزوجة بظلمات كثيرة. الباطل الخالص يسهل كشفه، أما الفتنة الكبرى فتلبس غالباً شيئاً من آثار الحق.

ثم أزاح كل الستائر عن أصل الجريمة:

﴿وَكَذَلِكَ سَأَلْتُ لِي نَفْسِي﴾.

هذه هي الحقيقة الأخيرة: النفس زينت. وراء الدعاوى الغامضة والاستثناء المعرفي كان هوى أراد أن يكون له أثر وسلطان على الجماعة.

كم من نظريات ضخمة تقف خلفها رغبة صغيرة في التميز!

وكم من انحراف يُلبس ثياب المعرفة، وأصله أن النفس أرادت أن تُتبع!

وكم من إنسان يزعم أنه اكتشف ما غاب عن الناس، وإنما اكتشف طريقًا يضخم به ذاته!

المشهد التاسع والعشرون

لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفًا

التوحيد حين يهدم الوثن مادةً ومعنى

﴿قَالَ فَأَذْهَبَ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾

حكم موسى على السامري بعزلة تناسب جريمته:

﴿أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾.

أراد أن يكون مركز اجتماع الناس حول عجله، فصار جزاؤه انقطاعاً عنهم. طلب أن تلتف حوله القلوب، فأنتهى إلى عزلة يصدّ فيها كل اقتراب.

فالجزء كثيرًا ما يأتي من جنس الخطيئة؛ من أراد السيطرة على الجماعة بالفتنة فقد أمان الجماعة، ومن بنى حضوره على تضليل الآخرين تحول حضوره نفسه إلى وحشة.

لكن عقوبة الدنيا ليست النهاية:

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ﴾.

يمكن أن يهرب المرء من حكم البشر، أو يزور قصته للأجيال، لكن هناك موعدًا لا يتأخر عنه ولا يتخلف هو منه. وهذه العبارة تهدم وهم الإفلات: قد تتباعد المسافة بين الجريمة والجزاء في الدنيا، أما الموعد الآتي فتأبث.

ثم التفت موسى إلى العجل:

﴿وَأَنْظِرْ إِلَى إِلَهِكَ﴾.

انظر إليه الآن؛ أين قوته التي زعمتم؟ هل يستطيع أن يدفع عن نفسه النار؟ وهل يمنع أجزائه من أن تتبدد في اليم؟

﴿الْحَرَقْنَاهُ ثُمَّ لَنْنَسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾.

لم يترك موسى العجل قائمًا باسم حرية الضلال؛ لأن بقاءه بين قوم حديثي العهد بالفتنة يبقي مادتها جاهزة للعودة. فحطمه وأذهب أثره، ليكشف لهم بالتجربة أن معبودهم لا يملك حماية نفسه.

ولم يكتفِ بكسره إلى قطع كبيرة قد يحتفظون بها تذكارًا؛ نسفه في اليم نسفًا. فالتوحيد لا يعالج الوثن تجميلًا، بل يزيل سلطانه من القلب والواقع.

لكن تحطيم الصنم الخارجي لا يكفي إن بقي داخلك. قد
تحرق العجل، ثم يبقى في النفس عجل آخر: حب الشهرة،
أو سلطان المال، أو تقديس الأشخاص، أو خوف الجماعة.
لذلك ختم المشهد بإعادة القلوب إلى المعبود الحق.

المشهد الثلاثون

إنما إلهكم الله

الحقيقة التي تبقى بعد احتراق جميع العجول

﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾

بعد أن تبدد العجل في اليم، بقيت الحقيقة التي لا تحترق:

﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ﴾.

ليس جسداً تصوغه الأيدي، ولا صورة تحتويها الأبصار،
ولا صوتاً أجوف يخرج من تركيب صنعه البشر. الله سبحانه
الواحد الذي لا شبيه له، ولا ند، ولا تحيط به الأوهام: ﴿لَيْسَ
كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

﴿الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

التوحيد لا يقول إن الله أعظم الآلهة فحسب؛ بل ينفي الألوهية
عما سواه من أصلها. كل ما عداه مخلوق محتاج، لا يملك
وجوده ولا بقاءه، فضلاً عن أن يملك مصائر العباد.

ثم جاءت الصفة التي تقابل ضيق العجل وصمته: ﴿وَسِعَ
كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

العجل لا يرجع إليهم قولاً؛ والله يعلم أقوالهم قبل أن ينطقوا.
العجل محصور في موضعه؛ وعلم الله وسع كل شيء.
العجل صنعته أيديهم؛ والله يعلم اليد وما صنعت، والقلب وما
قصد، والماضي وما وقع، والمستقبل قبل أن يأتي.

كل وثن يضيق بمن يعبده؛ لأنه محدود. أما الله فقد وسع كل
شيء علماً، فلا تضيع عنده دعوة، ولا يلتبس عليه صوت،
ولا يُنسى عنده مظلوم، ولا يختفي في ملكه سر.

بدأت قصة موسى في السورة بالقول:

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾،

وانتهت فتنه العجل بالقول:

﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾.

وكان السورة ترد الإنسان دائماً من ضيق المحسوس إلى
سعة الإيمان، ومن جسد له خوار إلى إله يعلم السر وأخفى،
ومن معبود تصنعه اليد إلى خالق صنع اليد والقلب والعقل.

وهنا ينتهي فصل موسى مع العجل، لكن السورة تعود إلى
النبي ﷺ الذي بدأ الخطاب لترتبت على قلبه من جديد. ستقول
له: إن ما نقصه عليك ليس حكاية ماضية، بل ذكر من عندنا؛

فيه تعرف كيف تُصنع الرسالات، وكيف تُفتن الجماعات، وكيف يصبر الأنبياء، وكيف تبقى الحقيقة وإن احترقت حولها القلوب وتكاثر المكذبون.

ثم تنتقل السورة الأبصار من فتنه العجل في التاريخ إلى هول الصور في الآخرة؛ حيث يحمل المعرضون أوزارهم، وتنسف الجبال، وتخضع الأصوات للرحمن، فلا يُسمع إلا همساً.

المشهد الحادي والثلاثون

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ

حين تتحول القصة إلى زاد لقلب النبي ﷺ

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا
ذِكْرًا﴾

بعد أن انطوت مشاهد الوادي والقصر، والبحر والسحرة،
والطور والعجل، عاد الخطاب إلى النبي محمد ﷺ؛ إلى قلبه
الذي نزلت السورة من أولها تمسح عنه مشقة الطريق:

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾.

ليست قصة موسى فصلاً تاريخياً منفصلاً عن وجع النبي
ﷺ في مكة، بل خطاب تنبئ حي. كأن الله يقول له: أنت
لست أول رسول يلقي التكذيب، ولا أول قلب يحمل ثقل
هداية الناس، ولا أول داعية يرى الباطل يحشد سحره
وجموعه في وجه كلمة الحق.

كان موسى أمام فرعون، وأنت أمام طغيان قريش.
خاف موسى فتبناه، ويحزنك إعراض قومك فنواسيك.
قيل عن آيته سحر، وقيل عن قرآنك سحر.

اجتمع السحرة على موسى، واجتمع المكذبون على صدك. لكن العاقبة لم تكن لمن امتلك القصر، بل لمن حمل الهدى.

فالقصاص القرآني لا يملأ ذاكرة المؤمن بالماضي فحسب، بل يمد حاضره بمعيار لفهم الطريق. حين يشتد الليل، يتذكر نار الوادي. وحين يطغى الباطل في عينه، يتذكر كيف ابتلعت العصا الحبال. وحين ينغلق أمامه البحر، يعلم أن الطرق التي يفتحها الله لا تراها الحسابات قبل أن تقع.

﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾.

ما أعظم نسبة القرآن إلى مقام العطاء الإلهي: من لدنا. ليس نتاج أرض، ولا خلاصة فلسفة بشرية، ولا صوت عصر محدود؛ بل ذكر من عند الله، جاء بعلمه وحكمته ورحمته.

وسُمِّي القرآن ذكرًا؛ لأنه يعيد إلى القلب ما تنساه الحياة. يذكره بربه حين تستغرقه الأسباب، وبالأخرة حين تخدعه العاجلة، وبحقيقة نفسه حين تتضخم صورته، وبوعد الله حين يملأ الخوف أفقه.

إن الإنسان لا يحتاج دائمًا إلى معلومة جديدة؛ كثيرًا ما يحتاج إلى حقيقة قديمة تُستعاد بحضور جديد. فهو يعرف أن الله معه، لكنه حين يشتد الخوف يحتاج أن يسمع: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ

أَسْمَعْ وَأَرَى . ويعرف أن الرزق من الله، لكنه يحتاج حين تضيق السبل أن يتذكر المن والسلوى. ويعرف أن الآخرة آتية، لكنه يحتاج أن ينزع الغبار الذي صنعتته الدنيا فوق يقينه.

والقرآن لا يذكر العقل وحده؛ يذكر الفطرة كلها. قد تمر الآية على قلب مغطى بطبقات من الغفلة، فتوقظ فيه معرفة كان يظن أنه فقدوها، كأنها تناديه باسمه من وراء وادي العمر:

يا موسى... يا محمد... يا أيها الإنسان: إني أنا ربك.

المشهد الثاني والثلاثون

من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً

حين يتحول الظهر الذي انحنى للدنيا إلى حامل للأثقال

﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ۝ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾

لم يقل: من لم يسمع القرآن، بل قال:

﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾.

والإعراض فعل مقصود؛ أن يأتيك النور فتدير له ظهرك، وأن يدعوك الذكر فتختار الغفلة، وأن تعرف أن في الكتاب خطاباً لك ثم تعيش كأنك غير مخاطب.

قد يقرأ الإنسان القرآن ولا يكون مقبلاً عليه. تمر الآيات على لسانه، بينما قلبه متجه إلى قبلة أخرى؛ يبحث فيه عما يزكي موقفه لا عما يصححه، ويتلوه طلباً للصوت ولا يفتح له أبواب السلوك.

الإعراض ليس دائماً إنكاراً صريحاً؛ قد يكون تأجيلًا دائماً للطاعة، أو انتقاءً لما يلائم الهوى، أو وضع المصحف في موضع التكريم مع إخراج حكمه من الحياة.

وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ حَمْلِ الذِّكْرِ فِي الدُّنْيَا حَمَلَ الْوِزْرَ فِي الْآخِرَةِ. رفض حمل الأمانة الخفيفة على القلب الصادق، فحمل ثقل الخطيئة. وهذه من مقابلات العدل: كل إنسان حامل؛ إما أن يحمل هدئاً يرفعه، وإما أن يحمل وزراً يثقله.

﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾.

في الدنيا كانت الذنوب خفيفة على الحس؛ كلمة ظلم قالها ثم نسيها، وحق أكله ثم مضى، ونظرة خيانة اختلسها، وموقف باع فيه الحق ولم يشعر بشيء على كتفه. لكن الأفعال لا تزول لأنها غابت عن الإحساس؛ تتحول يوم القيامة إلى حمل ظاهر.

كم يحمل الإنسان اليوم أشياء يظنها مكاسب، فإذا هي أوزار مؤجلة! مالا جُمع بظلم، ومكانة شُيّدت على أكتاف الناس، وثناءً اشتراه بالنفاق. تبدو في الدنيا زينة يحملها صدره، ثم تنقلب في الآخرة حجراً يحمله ظهره.

القرآن يريد أن يغير إحساسك بالخطيئة قبل أن يتجسد ثقلها:
لا تقل إنها صغيرة لأنها لم تؤلمك الآن؛ فقد يكون خدر
الضمير جزءاً من الخطر.

المشهد الثالث والثلاثون

يوم يُنفخ في الصور

حين تنطفئ ضوضاء العالم في نفخة واحدة

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾

يمضي العالم في صخبه كأنه باقٍ: الأسواق مفتوحة، والقصور مضاءة، والطغاة يوزعون الخوف، والناس يتنافسون على مساحات صغيرة من التراب. ثم تأتي نفخة واحدة فتطوي نظامًا كاملاً.

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾.

لا يحتاج انتهاء العالم إلى جيوش؛ أمر واحد يبدل وجه الوجود. كل ما بدا راسخًا كان معلقًا بإذن الله، فإذا جاء الأجل انقطع الإذن.

ويُحْشَرُ المجرمون زُرْقًا، وقد قيل: زرق العيون من شدة الهول، أو عميًّا عطاشًا. والمشهد في جميع دلالاته صورة ذبول وانطفاء بعد بريق الدنيا. الذين اكتحلوا بزينة الحياة وجاءوا يتباهون بصورهم، يُبعثون وقد محا الفزع عن وجوههم كل زينة.

إن القيامة تسقط الأقنعة قبل أن يبدأ الحساب. لا يبقى للطاغية موكب يصنع هيئته، ولا للمنافق جمهور يخدعه، ولا للغني مال يكسو هشاشته. يخرج الإنسان بالصورة التي صنعها عمله في أعماقه.

إن لبثتم إلا عشرًا

﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۖ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۚ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾

أين ذهبت الأصوات التي كانت تملأ الدنيا صخبًا؟ صاروا يتخافتون. فالقيامة لا ترفع صوت الباطل، بل تخفضه حتى يصير همسًا مضطربًا.

ينظرون إلى الدنيا التي عاشوها، فيرونها قصيرة إلى حد الدهول: عشر ليال، بل يوم واحد. الأعمار التي من أجلها ظلموا وباعوا وقطعوا الأرحام وخانوا الأمانات تنكمش في الذاكرة أمام الأبد حتى تبدو يومًا.

وهنا تظهر الخديعة الكبرى للزمن الدنيوي: حين تكون داخل الألم أو الشهوة يبدو طويلًا مستوليًا على الوجود كله، فإذا خرجت إلى الآخرة رأيتَه ومضة.

كم من إنسان باع خلودًا لا ينتهي من أجل يوم!
وكم من قلب هدم آخرته ليبيني ساعة من اللذة أو أعوامًا من
السلطان!

وكم من خصومة استهلكت عمرًا، ثم بدت عند الموت أصغر
من أن تستحق كلمة!

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾.

حتى تخافتهم مسموع، وتقديرهم للزمن معلوم. الله الذي يعلم
السر وأخفى لا تحجب عنه ضوضاء القيامة همسًا، ولا
يختلط عليه صوت بملايين الأصوات.

وقال أمثلهم طريقة، أي أرجحهم تقديرًا:

﴿إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾.

كان أقدرهم إدراكًا هو من رأى الدنيا أقصر. فالعقل كلما
نضج أدرك صغر العاجلة أمام الباقية، ولم يسمح ليوم أن
يسرق منه الأبد.

المشهد الرابع والثلاثون

ويسألونك عن الجبال

حين تنسف رموز الثبات ويبقى وجه الحقيقة

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۖ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾

يسألون عن الجبال؛ عن أرسخ ما تعرفه العين، وعن الكتل التي تبدو كأنها كتبت على الأرض معنى البقاء.

فيأتي الجواب:

﴿يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾.

لا تتفتت ببطء، بل تقتلع وتذرى حتى تزول هيئتها. الجبل الذي يحتاج الإنسان إلى سنوات ليشق فيه نفقًا، ينسفه أمر الله نسفًا.

إذا كانت الجبال لا تثبت في ذلك اليوم، فبأي شيء من الدنيا يستعصم المتكبر؟ أين قصور فرعون أمام جبل يُنسف؟ وأين سلطانه إذا كانت الأرض كلها ستسوى؟

﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾.

تصبح الأرض مستوية ملساء، لا مرتفع يحجب، ولا منخفض يخفي. كأن هيئة المكان نفسها تستعد للعدل الكامل: لا زاوية يهرب إليها مجرم، ولا حصن يختبئ خلفه سلطان.

﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾.

أرض بلا التواء، ليجري عليها يوم لا التواء في حكمه. سقطت الجغرافيا التي تقسم الناس إلى أعلى وأسفل، وبقي ميزان العمل وحده يرفع ويخفض.

في الدنيا احتُمى الأقوياء بالجبال المادية والمعنوية: بالمال، والعشيرة، والمنصب، والجيش، والصورة العامة. وفي القيامة ينسف الله كل جبل زائف، حتى يقف الإنسان بلا ساتر إلا رحمته وعمله.

المشهد الخامس والثلاثون

يومئذ يتبعون الداعي لا عِوَجَ لَهُ

البشرية كلها تمضي إلى صوت لا تستطيع مخالفته

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾

كم دُعي الناس في الدنيا إلى الله فانحرفوا عن الطريق! وكم سمعوا النداء ثم قالوا: سننظر، أو أعرضوا، أو اتبعوا داعي الهوى!

أما ذلك اليوم:

﴿يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾.

لا يستطيع أحد أن يميل عن النداء أو يتأخر أو يختار وجهة أخرى. انتهى زمن الاختيار وبدأ زمن ظهور النتائج.

وفي الدنيا ارتفعت أصوات فرعون وهو يقول: أنا ربكم الأعلى، وارتفع خوار العجل، وضج السحرة والحشود. أما في الآخرة: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾.

تأمل اختيار اسم **الرحمن** في قلب مشهد الرهبة. صاحب الجلال الذي تخشع له الأصوات هو الرحمن. فلا تناقض بين كمال الهيبة وكمال الرحمة؛ إنما يخاف العبد عدل من كانت رحمته واسعة، ويطمع في رحمة من لا يعجزه الحساب.

﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾.

البشرية كلها التي ملأت الأرض جدالًا وحروبًا وخطبًا أصبحت همسًا. الذين صرخوا في وجوه المظلومين لا يملكون رفع أصواتهم، والذين زيفوا الحقائق بأبواقهم فقدوا الأبواق والمنابر.

ما أضعف صوت الإنسان حين ينفصل عن الحق، ولو ملأ الدنيا حينًا! وما أبقى الكلمة الصادقة، وإن خرجت هامسة من قلب مجهول؛ لأنها ترتبط بمن تبقى كلمته بعد أن يخشع كل صوت.

المشهد السادس والثلاثون

لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن

حين تسقط الوساطات ولا يبقى إلا الإذن

﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾

كانت الدنيا قائمة في نظر كثير من الناس على العلاقات: فلان يعرف فلاناً، وهذا قريب من صاحب السلطان، وذاك تحميه جماعته. حتى تسلل هذا المنطق إلى تصورهم عن الآخرة، فتوهموا أنهم يستطيعون حمل شبكات النفوذ البشرية إلى ساحة الله.

فتأتي الآية لتقطع الوهم:

﴿لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾.

لا أحد يتقدم من تلقاء نفسه، ولا أحد يفرض على الله شيئاً، ولا شفاعة تقع خارج مشيئته ورضاه. فالشفاعة حق، لكنها ملك لله ابتداءً وانتهاءً، يأذن بها لمن يشاء ويرضى.

وهذا يحرر القلب من التعلق بالمخلوقين في شأن لا يملكه إلا الخالق. تحب الصالحين وتتوسم صحبتهم، لكنك لا تجعل حبك لهم بديلاً من طاعتك، ولا تنتسب إليهم ثم تأمن مكر الله وأنت مقيم على الظلم.

ليس القرب من الأسماء نجاة، بل القرب من الله بالإيمان. ولم ينج بني إسرائيل أنهم قوم موسى حين عبدوا العجل، ولم ينفع السامري أنه رأى أثر الرسول حين استخدم ما رأى في الفتنة.

﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾.

كل الكلام الذي ملأ الدنيا يُختبر يومئذ بمعيار الرضا الإلهي. كم من قول رضي عنه الناس وسخطه الله، وكم من كلمة كرهها الناس لأنها واجهت أهواءهم وكانت عند الله مرضية!

فلا تجعل كثرة التصفيق دليلك، ولا وحشة الطريق حجة على بطلانه. السؤال الأعرق: هل رضي الله لهذا القول؟

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾

تتكرر في السورة إحاطة العلم الإلهي؛ لأنها علاج لجذرين من جذور الضلال: وهم الإنسان أن شيئاً من عمله يخفى، ووهمه أن عقله يحيط بكل شيء.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

يعلم ما تقدم من أعمالهم وما يستقبلهم، ويعلم ظاهرهم وباطنهم، وما أدركوه وما غاب عنهم. الزمن كله حاضر في علمه، لا يفاجئه مستقبل ولا يلتبس عليه ماضٍ.

أما هم:

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾.

يعرف العبد من ربه ما عرّفه به في وحيه وآياته، لكنه لا يحيط بذاته وصفاته وكيفياتها؛ فالله أعظم من أن تحده العقول أو تشبّهه بالمخلوقات، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

وهذه الآية تضع العقل في مقام الشرف والتواضع معاً. فهو مكرم بأن يعرف ويستدل، لكنه عبد لا يحيط بالمطلق. وكلما ازداد معرفةً صحيحة، ازداد وعياً بحدوده.

الجهل قد يقول: لا أدري. أما الغرور المعرفي فيقول: ما لا أحيط به لا وجود له. وهنا يصبح ضيق العقل معيارًا لسعة الوجود، كمن ينكر البحر لأن كفه لا تستوعبه.

إن الإيمان لا يطلب من العقل أن يستقيل، بل أن يعرف الفرق بين الإدراك والإحاطة؛ ترى آثار الشمس وتتنفع بنورها، دون أن تحيط بكل سر فيها. فكيف بخالق الشمس والذهن الذي يتأملها؟

المشهد السابع والثلاثون

وعنت الوجوه للحي القيوم

حين تسقط الكبرياء وتبقى العبودية عارية

﴿وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾

عنت الوجوه: ذلت وخضعت واستسلمت. والوجه هو موضع الكرامة والهوية، فإذا عنت الوجوه فقد خضع الإنسان كله.

لكنها لم تخضع لميت يزول، ولا لسلطان يحتاج إلى من يحرسه؛ خضعت: ﴿الْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾.

الحي الذي لا يموت، في مقابل كل الملوك الذين يورثون عروشهم للتراب.

والقيوم القائم بنفسه، المقيم لغيره، الذي يحتاج إليه كل شيء ولا يحتاج إلى شيء.

كان فرعون قائماً بجنده، فلما غرق لم يستطع جنده أن يقيموه. وكان العجل قائماً بصنعة السامري، فلما حُرِّق لم يحم نفسه. أما الله فهو القيوم؛ قيام الوجود كله به.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾.

الظلم حمل، وإن بدا لصاحبه في الدنيا قوة. يحمل حق الناس الذي أكله، ودماءهم التي أراقها، وكرامتهم التي كسرهما، والكلمات التي شوه بها الأبرياء.

ولفظ ﴿حَمَلَ﴾ يعيدنا إلى الوزر: ما رفض الإنسان تطهيره بالتوبة حمله إلى الموقف. ومن جاء بالظلم خاب؛ ولو كان في الدنيا قائدًا منتصرًا، أو غنيًا ممدوحًا، أو ذا جمهور يدافع عنه.

الخبية ليست أن تخسر منصبًا، بل أن تصل إلى الله وفي عنقك إنسان.

والفوز ليس أن تعلو فوق الناس، بل أن تلقاه ويدك خفيفة من دمائهم وحقوقهم.

المشهد الثامن والثلاثون

فلا يخاف ظلماً ولا هضماً

الأمان الكامل في ساحة العدل الكامل

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾

في الدنيا قد يعمل الإنسان صالحاً ثم يُظلم: تُنسب حسنته إلى غيره، ويُجدد فضله، ويُتهم في نيته، ويؤخذ حقه. أما في ميزان الله فلا يضيع شيء.

﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾: لن تُزاد عليه سيئة لم يعملها.

﴿وَلَا هَضْمًا﴾: ولن يُنقص من حسناته وحقه شيء.

هذا هو الأمان الذي لا تمنحه محاكم الأرض كاملة؛ لأن البشر قد يجهلون، أو ينسون، أو يميلون. أما الذي يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم فلا يظلم ولا ينسى.

قرنت الآية العمل الصالح بالإيمان؛ لأن العمل بلا أصل الإيمان يفقد وجهته العليا، ودعوى الإيمان بلا عمل تبقى بلا برهان. فالقلب والجوارح في القرآن وحدة واحدة: ما استقر في الداخل لا بد أن يترك أثرًا في الخارج.

هذه الآية بلسم لكل مجهول أحسن ولم يُشكر، ولكل مظلوم ثبت ولم يُنصف، ولكل من عمل لله ثم رأى غيره يحصد الثناء. لا تخف هضمًا؛ إن الذي تعمل له لا تغيب عنه ذرة.

اجعل هذه الحقيقة حرك من مرارة المقارنة. ربما ارتفع اسم غيرك بعمل شاركت فيه، أو نسي عطاؤك، أو شوه الناس نيتك؛ فإن كنت صادقًا فقد كُتب ما فعلت في موضع لا تصل إليه أيديهم.

المشهد التاسع والثلاثون

وكذلك أنزلناه قرآنًا عربيًّا

البيان الذي يطرق القلوب من أبواب لغتها

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ
يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾

أنزله الله قرآنًا عربيًّا، بلغة القوم التي يعرفون مذاقها وإيقاعها ودقائقها. لم تكن العربية حاجزًا بين الوحي وأول مخاطبيه، بل الجسر الذي وصل عبره إلى أعماق مواضعهم.

لكن هذا القرآن مع عربيته ليس صناعة عربية؛ إنه تنزيل من رب العالمين، صيغت هدايته في لسان عربي مبين. جمع بين علو المصدر وقرب العبارة.

﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾.

نوع الله أساليب التحذير؛ مرة بقصة طاغية غرق، ومرة بمشهد قيامة تخشع فيه الأصوات، ومرة بذكر الوزر، ومرة بنسف الجبال. فالقلوب تختلف مفاتيحها: قلب توقظه القصة، وآخر يهزه المشهد، وثالث ينفذ إليه السؤال.

والتكرار القرآني ليس إعادة خاوية؛ إنه عرض للحقيقة من زوايا متعددة، حتى لا يبقى للغافل باب يعتذر منه.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾.

قد تنزل الآية على القلب فتمنعه من معصية كان سيقع فيها؛ وهذه تقوى. وقد تنشئ فيه وعيًا جديدًا لم يكن حاضرًا؛ وهذا ذكر مُحدث في حياته، لا بمعنى حدوث كلام الله، بل بمعنى تجدد الاتعاظ في قلبه.

القرآن هو هو، لكنك لا تعود إليه في كل مرة بالقلب نفسه. قد تقرأ آية عشرات المرات، ثم تقع في حياتك واقعة تجعلها تنفتح فجأة كأنها نزلت في تلك الساعة. لم تتغير الآية؛ أنت الذي وصلت إلى الباب الذي كانت تنتظرك عنده.

المشهد الأربعون

فتعالى الله الملك الحق

حين يسمو القلب من ضجيج القصص إلى جلال المتكلم

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾

بعد صور الملوك الزانفين، يأتي الاسم الذي يرد الملك إلى صاحبه:

﴿الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾.

فرعون ملك ادعاءً، انتهى ملكه عند الماء. والسامري ملك لحظةً قلوب المخذوعين، ثم صار يقول: لا مساس. أما الله فهو الملك الحق؛ ملكه ليس تفويضاً من أحد، ولا تحده أرض، ولا يزول بموت، ولا يحتاج إلى جنود يحمونه.

﴿فَتَعَالَى﴾: تنزّه وارتفع عن كل نقص وشبيهه، وعن أوهام الذين قاسوه إلى المخلوقين أو اتخذوا من دونه آلهة. ليس كمثله شيء، ولا تحيط به العقول، ولا ينازعه في أمره أحد.

إن تكرار هذا المعنى في السورة يربي النبي ﷺ ألا يهاب ملوك الباطل؛ لأن من عرف الملك الحق رأى عروشهم أثاناً مؤقتاً في أرض الله.

ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيه

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾

كان النبي ﷺ، من شدة حرصه على حفظ الوحي، يبادر إلى تحريك لسانه به قبل أن يفرغ جبريل من تلاوته؛ يخشى أن يفوته شيء من كلام ربه.

فجاء التوجيه رفيقاً:

لا تعجل. دع الوحي يتم نزوله، فإن الذي أنزله تكفل بحفظه في صدرك.

إنها عجلة منشؤها المحبة والحرص، لكنها مع ذلك تحتاج إلى تهذيب. فليس كل اندفاع صادق مصيباً في صورته؛ قد تكون النية نقية ويحتاج السلوك إلى تعليم.

وهذه الآية تصل آخر السورة بأول تلقي موسى: **﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾**.

قيل لموسى: استمع.

وقيل لمحمد ﷺ: لا تعجل قبل تمام الوحي.

فالرسالة تبدأ بحسن التلقي. لا بد أن يصمت الإنسان أمام كلام الله قبل أن يتكلم به، وأن يدع الوحي يشكله قبل أن يذهب ليشكل به العالم.

كم نفسد المعاني بالعجلة! نسمع طرفاً فنحكم، ونقرأ سطرًا فنظن أننا أحطنا، ونلتقط آية ونفصلها عن سياقها، ثم نبني عليها خصومة أو موقفًا. أما أدب الوحي فيعلمنا أن ننتظر اكتمال البيان.

العجلة تريد امتلاك المعنى سريعًا، بينما العلم الحقيقي يحتاج إنصافًا وصبرًا وتواضعًا.

وقل رب زدني علمًا

﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾

لم يأمر الله نبيه ﷺ أن يطلب الزيادة من شيء في القرآن تصريحًا كما أمره بطلب الزيادة من العلم. لأن العلم بالله ووحيه لا يشبع منه القلب؛ كلما ازداد رأى آفاقًا لم يكن يراها، وعرف مقدار جهله على نحو أعمق.

لكنه لم يقل: زدني معلومات، بل:

﴿زِدْنِي عِلْمًا﴾.

العلم الذي يرفع صاحبه هو ما يقربه من الله، ويهدي عمله، ويزيده خشية ورحمة وعدلاً. أما المعلومات التي تنتفخ بها الذات ولا يتزكى بها القلب فقد تتحول إلى حجاب جديد.

وفي لفظ ﴿رَبِّ﴾ اعتراف بأن العلم تربية وهبة. يقرأ الإنسان ويدرس ويبحث، لكنه لا يفتح لنفسه أبواب الفهم وحده. كم من قارئ كثرت محفوظاته ولم يبصر، وكم من عبد فتح الله له في آية واحدة ما أعاد بناء حياته!

اطلب العلم من بابه، وابذل أسبابه، لكن لا تنسب النور إلى ذكائك وحده. العقل عين، والله هو الذي يمنحها الضوء.

والعجيب أن هذه الآية تأتي بعد النهي عن العجلة؛ فكأن الطريق إلى زيادة العلم ليس سرعة الالتقاط، بل جودة الإنصات. كلما هدأت أمام الوحي، اتسع ما يمنحك. وكلما اعترفت بحاجتك، فتح لك من المعنى.

ومن الوادي إلى مكة، ومن موسى إلى محمد عليهما الصلاة والسلام، تبقى التربية واحدة:

استمع لما يوحى.

لا تعجل بالقرآن.

وقل دائماً: ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾.

ثم ستعود السورة إلى الأب الأول، آدم عليه السلام؛ لتكشف أن النسيان ليس عارضاً في قصة بني إسرائيل وحدهم، بل ضعف قديم في الإنسان. نسي آدم العهد، وفتنه الوعد بالخلد، ثم أدركته رحمة الاجتباء والهداية.

وكان السورة بعد أن عرضت طغيان فرعون، وثبات السحرة، وفتنة العجل، تريد أن تنتقل المعركة إلى أقرب مواضعها: داخل النفس نفسها؛ حيث يتجدد الصراع بين عهد الله، وهمس الشيطان، وشهوة الخلود، ثم باب التوبة الذي لا يغلق.

المشهد الحادي والأربعون

ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي

النسيان القديم الذي يسكن قلب الإنسان

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾

بعد أن قال الله لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ﴾، عادت السورة إلى أول إنسان، وأول عهد، وأول نسيان.

ليست قصة آدم مقطوعة عن قصة موسى وبني إسرائيل؛ إنها تكشف الجذر الإنساني الذي تنبت منه العثرات جميعًا. فالإنسان مخلوق يحمل قابلية النسيان، يشرق قلبه بالعهد ثم تتراكم عليه غيوم اللحظة، ويعرف الحقيقة ثم تغلبه شهوة قريبة فتدفعها إلى هامش الوعي.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ﴾.

لم يُترك آدم بلا بيان، بل سبقت التجربة كلمة من الله تحدد له موضع الخطر. وهذا هو معنى التكليف: أن تأتيك الهداية قبل أن تقع قدمك في الحفرة، وأن تُمنح نورًا تستطيع به تمييز الطريق.

لكن آدم نسي: ﴿فَنَسِيَ﴾.

والنسيان هنا ليس مجرد غياب معلومة عن الذاكرة، بل غياب أثر العهد في لحظة الفعل. فقد يعرف الإنسان الحكم، لكن المعرفة لا تكون حاضرة بالقوة التي تصدّه حين تهجم الشهوة.

وكم من حقيقة نحفظها ولا تحضر حين نحتاجها! نعرف أن الدنيا فانية، ثم نتقاتل على زينتها كأنها باقية. ونعرف أن الله يرانا، ثم نتصرف في الخلوة كأننا غيبا عن علمه.

ونعرف أن الكلمة مكتوبة، ثم نطلقها في لحظة غضب فتجرح قلبًا أعوامًا.

ليست الأزمة دائمًا جهلاً بالحق؛ قد تكون عجزًا عن استحضاره في ساعة الامتحان.

﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾.

أي لم يثبت على العهد في تلك اللحظة ثباتًا يدفع عنه الإغراء. والعزم هو أن تتحول المعرفة إلى قوة ممسكة بالقرار، فلا تذروها أول ريح من الهوى.

ومن هنا نفهم لماذا جاء القرآن ذِكْرًا؛ لأن الإنسان ينسى،
ولماذا تتكرر الصلاة؛ لأن القلب يتفرق، ولماذا يحتاج
المؤمن إلى التلاوة يوميًا بعد يوم؛ لأن عهد الأمس قد تكسوه
غفلة اليوم.

لسنا بحاجة إلى الذكر لأن الحقيقة تتغير، بل لأننا نحن
الذين نتغير وننسى.

المشهد الثاني والأربعون

فسجدوا إلا إبليس أبى

حين يهزم الكبر صاحب المعرفة

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾

يتكرر في السورة فعل الإباء. قيل عن فرعون: ﴿فَكَذَّبَ
وَأَبَى﴾.

وقيل عن إبليس: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾.

فالطغيان الفرعوني امتداد أرضي لذلك الاستكبار القديم:
أن يعرف المخلوق أمر ربه، ثم يرفض الانقياد لأن ذاته
تضخمت في عينه.

لم يكن إبليس جاهلاً بوجود الله، ولم تنقصه المعرفة
المجردة؛ إنما هزمته نفسه حين رأى السجود لآدم انتقاصاً
من منزلته. وهنا يظهر أن أخطر ما يفسد العلم ليس نقص
المعلومات، بل الكبر.

قد يعرف الإنسان الحق معرفة واضحة، لكنه لا يقبله لأن الذي جاء به أصغر منه سنًا، أو أقل منه مكانة، أو من جماعة لا يحبها. فيكون اعتراضه في ظاهره على الفكرة، وحقيقته على أن الحق لم يأت من الباب الذي يليق بكبريائه.

أمر الله الملائكة فسجدوا، لأن الطاعة عندهم مقدمة على سؤال المكانة. أما إبليس فقاس الأمر إلى نفسه قبل أن يقيس نفسه إلى الأمر.

كل معصية في أعماقها تحمل شيئًا من هذا الانقلاب: أن تجعل رغبتك معيارًا لأمر الله، بدل أن تجعل أمر الله معيارًا لرغبتك.

المشهد الثالث والأربعون

إن هذا عدوُّك ولزوجك

التحذير الذي كشف العدو قبل أن يبدأ الهمس

﴿قُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ
الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾

لم يخف الله عن آدم هوية الخطر:

﴿إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾.

فالعداوة قديمة ومعلنة، والشيطان لا يأتي إلى الإنسان محايداً
يستكشف مصلحته؛ إن له غاية: أن يخرجك من موضع
الطاعة والسكينة إلى موضع الشقاء.

لكن العجيب أن العدو المعلن لا يقول لضحاياه: جئت
لأشقيكم. يأتيهم في صورة الناصح، ويغلف الخروج من
الجنة بوعد الخلود والملك. وهذه هي خطورة الوسوسة: أنها
تخفي النهاية داخل بداية جذابة.

﴿فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ﴾.

نُسب الإخراج إلى كيده، مع أن آدم هو الذي سيختار الأكل؛ لأن العدو يزين الطريق، لكن الاختيار يبقى للإنسان. فالشيطان لا يملك أن يجبر القلب، وإنما يفتح للهوى نافذة وينفخ فيه حتى يكبر.

ثم قال سبحانه: ﴿فَتَشْقَى﴾.

جاء الخطاب بالمفرد لآدم، مع أن التحذير له ولزوجه؛ وقد ذكر المفسرون أن عليه كلفة السعي والمعاش. وفي اللفظة صلة عميقة بمطلع السورة:

﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾.

الشقاء لم يأت من الوحي، بل من الإعراض عن العهد واتباع العدو. القرآن ليس الذي يضيق حياة الإنسان؛ إنه الطريق الذي ينقذه من ضيق الهوى. ربما تبدو الأوامر قيودًا في عين الشهوة، لكنها أسوار تحمي جنتك الداخلية من النهب.

إن الشيطان يقنع الإنسان أن سعادته خلف الحد الذي نهاه الله عنه، فإذا تجاوزه وجد الشقاء ينتظره. وكل معصية تعدك بجنة قصيرة، ثم تترك في القلب شيئًا من العري والوحشة.

المشهد الرابع والأربعون

إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى

الجنة التي كفلت للإنسان حاجاته قبل أن يعرف الخوف
﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ ١٠ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا
تَضْحَى ﴿١١﴾

يعدد الله على آدم وجوه الكفاية في الجنة:

لا جوع، ولا عري، ولا ظمأ، ولا أذى شمس.

جمع له ما يحفظ باطن الجسد وظاهره: الطعام من الجوع،
والكساء من العري، والماء من الظمأ، والمسكن من الحر.
كان يعيش في كفاية كاملة، لا يطارده قلق الغد ولا ذل
الحاجة.

ومع ذلك استطاع الشيطان أن يجعل الإنسان ينظر إلى
الشيء الوحيد الممنوع، وينسى الجنة كلها.

هذه هي حيلة الحرمان المتوهم: أن يمحو الشيطان من وعيك آلاف النعم، ثم يثبت بصرك على باب واحد مغلق حتى تظن أنك محروم. تصبح الشجرة أشد حضوراً من الجنة، والممنوع أكبر من كل المباح.

كم يعيش الإنسان محاطاً بالنعم، لكنه لا يشعر إلا بما ينقصه! عنده صحة فيحزن على المال، وعنده مال فيحزن على منزلة، وعنده أهل فيقارنهم بما عند غيره. حتى تصبح حياته، في وعيه، قائمة طويلة من الغائب، لا بستاناً ممتداً من الحاضر.

إن الشكر يعيد توزيع الضوء في القلب؛ لا ينكر النقص، لكنه يمنع النقص من احتلال المشهد كله.

والله حين منع آدم من الشجرة لم يمنعه حاجة تتوقف عليها حياته؛ فقد كفل له كل ما يحتاج. كان المنع تربيةً للإرادة، حتى يعرف الإنسان أن حريته لا تكتمل بفعل كل ما يقدر عليه، بل بقدرته على الامتناع عما لا يرضي الله.

المشهد الخامس والأربعون

هل أدلك على شجرة الخلد؟

الكذبة التي ارتدت ثوب الأمانة الكبرى

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ
وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾

لم يقل له: اعص ربك. لو جاءه بهذه العبارة لانكشف. قال:
﴿هَلْ أَدُلُّكَ﴾.

اتخذ هيئة الدليل المشفق، كأنه يعرف طريقًا خفيًا إلى
مصلحة آدم. ثم لمس أعماق موضعين في النفس الإنسانية:
الخوف من الفناء، والرغبة في الملك.

﴿شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾: حياة لا تنتهي.
﴿وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾: سلطان لا يزول.

إنهما الحلمان اللذان سيطارداں البشر بعد آدم: البقاء
والامتلاك. يخاف الإنسان الموت، فيحاول أن يخلد اسمه أو
صورته أو ذريته، ويخاف الضعف، فيجمع من القوة ما يظن
أنه يمنعه من الزوال.

لكن الشيطان عرض الخلد من طريق المعصية، مع أن الخلد الحقيقي لا يوهب إلا بالطاعة. وعرض الملك الذي لا يبلى في عالم قدر الله عليه الفناء. إنه لا يخلق الرغبة من عدم؛ يأخذ رغبة فطرية ثم يدلها على باب خاطئ.

الرغبة في البقاء تجد جوابها في الجنة، لا في شجرة النهي. والرغبة في الكرامة تجدها في العبودية، لا في الاستعلاء. لكن الشيطان يسرق الغاية النبيلة، ثم يربطها بوسيلة محرمة.

وهكذا تنتكر الخطيئة في ثوب مشروع جميل: قد يكون اسمها حرية، أو قوة، أو حبًا، أو مصلحة، أو خلودًا. لذلك لا يكفي أن تسأل نفسك: هل الغاية جذابة؟ بل اسأل: هل الطريق إليها يرضي الله؟

المشهد السادس والأربعون

فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما

اللحظة التي سقط فيها الوهم وظهر ثمنه

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾

ما إن أكلا حتى انطفأت لغة الوعود، وظهرت الحقيقة.

لم يأت الخلد، ولم يثبت الملك؛ إنما انكشف الستر. وهذا قانون المعصية: قبلها يريك الشيطان اللذة، وبعدها يريك العري. قبلها يضخم المكسب ويخفي الثمن، وبعدها يهرب ويتركك وحدك أمام أثر فعلتك.

﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾.

كان الستر نعمة لا يشعران بها حتى فقداها. وبعض النعم لا تعرف قيمتها إلا لحظة انكشافها: طمأنينة الضمير، وصفاء القلب، وحلاوة القرب، وراحة ألا تحمل سرًا تخشى ظهوره.

وطفقا يخفضان عليهما من ورق الجنة؛ حركة سريعة مرتبكة تكشف فزع الإنسان حين يحاول إصلاح أثر الخطيئة بأقرب ما يقع في يده. لكن ورق الجنة يستتر الجسد، ولا يمحو الذنب. فلا بد للقلب من طريق آخر: التوبة.

ثم جاءت العبارة صريحة بلا تزيين:

﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾.

القرآن لا يحول حب الصالحين إلى إنكار لأخطائهم. آدم نبي كريم، لكن الفعل كان معصية، ووصفه بحقيقته هو بداية الخلاص منه.

من رحمة الله بك أن تسمي خطأك خطأً. فالتسميات المخففة قد تمنح النفس راحة مؤقتة، لكنها تمنعها من التوبة الصادقة. ما دمت تسمي الكبر كرامة، والحسد نقداً، والغيبة نصحاً، والجبن حكمة؛ فلن تعالج شيئاً.

﴿فَغَوَى﴾: أخطأ طريق الرشd في تلك اللحظة، فلم يبلغه الفعل ما وُعد به، بل ساقه إلى خلافه. فالمعصية غواية لأنها طريق يبدو متجهاً إلى السعادة ثم ينحرف بصاحبه بعيداً عنها.

المشهد السابع والأربعون

ثم اجتباؤه ربُّه فتأب عليه وهدي

الرحمة التي لم تجعل السقوط خاتمة الإنسان

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَأَب عَلَيْهِ وَهَدَى﴾

لو انتهت القصة عند ﴿فَعَوَى﴾، لكان ماضي الإنسان بابًا مغلقًا على اليأس. لكن الكلمة التالية جاءت تحمل فجرًا كاملاً:

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾.

أخطأ، لكن الله لم يطرحه من رحمته. غوى لحظة، لكن الغواية لم تصبح اسمه الأبدي. انكسر، ثم اجتباؤه ربّه.

ما أعظم الفرق بين آدم وإبليس! كلاهما وقع في مخالفة، لكن إبليس استكبر وبرر واعترض، وآدم عرف ذنبه ورجع. ليست العصمة من أصل الضعف هي الفارق الوحيد في مصير العبد، بل ما يفعله بعد أن ينكشف له ضعفه.

المتكبر يجعل خطأه عقيدة يدافع عنها.
والتائب يجعل خطأه بابًا إلى مزيد من العبودية.

﴿قَتَابَ عَلَيْهِ﴾

توبة العبد واقعة بين رحمتين من الله: توفيق يوقظه للرجوع، وقبول يحتضنه بعد الرجوع. ولولا أن الله أراد به خيرًا، لتركه يزين لنفسه فعلته حتى يموت عليها.

ثم: ﴿وَهْدَى﴾.

لم يغفر له فحسب، بل أعاد إليه الطريق. فالمغفرة تمحو أثر الماضي، والهداية تصلح وجهة المستقبل. ورحمة الله لا تكتفي بأن تخرجك من حفرة الذنب، بل تأخذ بيدك إلى الصراط.

قد يظن المذنب أن تاريخه انتهى عند سقطة، بينما يجعل الله من صدق توبته بداية اجتباء جديد. كم من إنسان عرف ربه بعد ذنبه معرفة لم يعرفها قبل الذنب، حين رأى فقره، وذاق ستر الله، وعرف أن نجاته ليست بقوته!

وهذا لا يجعل الذنب مطلوبًا، لكنه يكشف أن الرحمة أوسع من قدرة الذنب على الإهلاك إذا صدق الرجوع.

المشهد الثامن والأربعون

اهبطا منها جميعاً

بدء الرحلة الأرضية بين عداوة الشيطان ووعد الهدى

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾

نزل آدم وزوجه إلى الأرض، وبدأ التاريخ الإنساني في ميدان تتقابل فيه العداوة والهداية.

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

المعركة ليست حادثاً عابراً، بل جزء من شروط الحياة الدنيا. الشيطان لن يتوقف عن الوسوسة، والنفس تحمل قابلية النسيان، والدنيا تعرض زينتها، والبشر قد يظلم بعضهم بعضاً.

لكن الله لم ينزل الإنسان إلى ساحة الصراع أعزل: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾.

الهبوط صاحبه وعد بالهداية. كأن الوحي حبل ممتد من السماء إلى الأرض، حتى لا يتحول البعد المكاني عن الجنة إلى ضياع روحي.

لم يقل: من اتبع حدسه، أو ما ألفه آبؤه، أو ما اجتمعت عليه الأكثرية؛ بل: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ﴾.

لأن صانع الإنسان أعلم بالطريق الذي يصلحه. من أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، لم يترك قلب الإنسان وحده أمام مفارق الوجود.

﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾.

لا يضل عن الطريق، ولا يشقى في مآله. وقد يلقي المؤمن ألمًا ومرضًا وظلمًا؛ فالآية لا تعده بحياة خالية من الابتلاء، لكنها تنفي عنه شقاء الضياع.

هناك فرق بين أن تتألم وأنت تعرف إلى أين تمضي، وأن تتألم بلا معنى ولا قبلة. المؤمن قد يبكي، لكنه لا يكون مقطوعًا عن ربه. وقد تضيق عليه الدنيا، لكن في قلبه فسحة من اليقين لا يصل إليها الضيق.

وهنا تعود السورة إلى مطلعها: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ
لِنَشْقَىٰ﴾.

فالقرآن هو الهدى الذي من اتبعه لا يشقى. لم ينزل ليصنع
الشقاء، بل لينقذ الإنسان من الشقاء الذي بدأ حين ترك آدم
العهد، والذي يتجدد كلما ترك بنوه هدى الله واتبعوا وسوسة
العدو.

المشهد التاسع والأربعون

ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا

الضييق الذي قد يسكن القصور

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾

في مقابل من اتبع الهدى، يقف من أعرض عن الذكر.
وجزاء الإعراض يبدأ قبل الآخرة:

﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾.

لم يقل: حياة فقيرة؛ فقد يكون المعرض ثرياً، واسع الدار،
كثير الممتلكات، لكن المعيشة تضيق في قلبه. الضنك ليس
قلة الأشياء وحدها، بل فقدان المعنى الذي يجعل الأشياء
قابلة لأن تمنح السكينة.

قد يملك الإنسان كل ما كان يتمناه، ثم يجد في داخله جوعاً
لا تعرف الموائد كيف تطعمه. كلما نال شيئاً طلب غيره،
وكلما ارتفع خاف السقوط، وكلما جمع ازداد هلعاً على ما
جمع.

لأن القلب خُلِق ليتصل بالله، فإذا حُرِم أصله حاول أن يملأ الفراغ بأشياء محدودة، فلا تمتلئ به. كمن يحاول إرواء البحر بقطرات من الزينة.

ومعيشة الضنك تشمل ضيق الصدر، وحيرة الوجهة، ووحشة القلب، وما يكون من عذاب القبر على ما ذكره المفسرون. إنها حياة انفصلت عن النور، فصار صاحبها لا يعرف لماذا يعيش، ولا إلى أين يذهب، ولا كيف يضع ألمه في قصة ذات معنى.

﴿وَلَحْشَرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾.

أعرض عن البصيرة في الدنيا، فظهر عماه في الآخرة. كانت الآيات أمامه فلم ينظر إليها نظر قبول، فجاء يوم لا تنفع فيه عين أغلق صاحبها عن الحق طويلاً.

رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا؟

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ۚ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾

يفاجأ بصورته فيقول: **﴿وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾.**

كان يرى الطرق والوجوه والألوان، لكنه لم يكن يرى الدلالة. امتلك بصر العين وفقد بصيرة القلب. وكم من مبصر يعيش بين الآيات أعمى عنها!

يأتي الجواب: ﴿أَتَنْتَكِ آيَاتُنَا فَنَسِيْنَهَا﴾.

لم تكن الآيات بعيدة، بل أنته. طرق الوحي بابه، ومر به تذكير، ورأى الموت يختطف من حوله، وتقلبت أمامه دلائل القدرة؛ لكنه وضعها خلف ظهره وعاش كأنها لم تأت.

﴿وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾.

والله سبحانه لا ينسى بمعنى ذهاب العلم، تعالى عن ذلك؛ وإنما يُترك في العذاب جزاءً وفاقاً، فلا يناله لطف النجاة الذي أعرض عن أسبابه.

نسي الآيات نسيان إهمال، فكان جزاؤه أن يُترك. جعل كلام الله على هامش حياته، فوجد نفسه يوم القيامة بعيداً عن مواطن الرحمة.

إن الجزاء هنا مرآة للعمل: كما عاملت الهدى تُعامل في ظهور أثره عليك. من أقبل عليه أقبلت عليه أنواره، ومن أعرض عاش عاقبة إعراضه.

المشهد الخمسون

وكذلك نجزي من أسرف

الإسراف بوصفه ضياعاً للعمر لا تجاوراً في المال وحده

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ
الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾

الإسراف أوسع من إنفاق المال بغير حق. قد يسرف الإنسان في عمره، فينفق سنواته في غير الغاية التي خُلق لها. ويسرف في قلبه، فيمنح المخلوق من الحب والخوف ما لا يستحق. ويسرف في خصومته، وفي شهوته، وفي كلماته، وفي ظلم نفسه.

كل استعمال للنعمة بعيداً عن مراد المنعم لون من الإسراف.
﴿وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾.

أضاف الآيات إلى اسم الرب؛ كأن الذي كذبوا به جاءهم من رب تولى تربيتهم ورزقهم. فالجريمة ليست رد معلومة باردة، بل جحود خطاب من أحسن إليهم.

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾.

تعود العبارة إلى ميزان السحرة حين قال فرعون: أَيْنَا أَشَدَّ عَذَابًا وَأَبْقَى؟ فعرفوا أن الله خير وأبقى. أما المعرض الذي اختار العاجلة، فسينتهي إلى عذاب هو أشد من كل ما خافه في الدنيا وأبقى.

العاقل لا يختار بمجرد شدة الحاضر، بل ينظر إلى البقاء. فما كان لذيذاً لحظة ثم أعقبه شقاء طويل ليس خيراً، وما كان شاقاً حيناً ثم أورث رضواناً دائماً ليس خسارة.

المشهد الحادي والخمسون

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ؟

البيوت الصامته التي تحولت إلى مواظ

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾

يمشي الناس في مساكن أمم مضت، ويرون الجدران التي بقيت بعد أصحابها. كانت فيها يومًا ضحكات ومطامع وخصومات وأحلام، ثم خلا المكان، وبقي الحجر شاهدًا على أن من ظنوا أنهم خالدون رحلوا.

﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ﴾.

ليست العبرة خبرًا بعيدًا؛ إنهم يطؤون مواضع الهالكين بأقدامهم. لكن القرب المكاني لا يضمن حضور المعنى؛ قد يمر الإنسان على المقبرة كل يوم ولا يتذكر موته، ويعيش بين آثار الأمم ولا يرى إلا حجارة.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾

التاريخ يمكن أن يهدي، إذا قرأه الإنسان بضمير. ليس مجرد سرد لأسماء الملوك وتواريخ المعارك، بل مختبر للسنن: كيف يبدأ الطغيان؟ وكيف تخدع القوة أصحابها؟ وكيف تسقط الحضارات حين تنخر الأخلاق أساسها؟

من لم ير في التاريخ إلا المنتصر اللحظي، أساء القراءة. ففرعون بدا منتصرًا أعوامًا، لكن خاتمة الطريق كانت في البحر. والعبرة ليست بصورة منتصف القصة، بل بمآلها.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾

العقول الحقيقية تنها أصحابها عن تكرار المصائر نفسها. أما من يقرأ سقوط المتكبرين ثم يعيد بناء كبرهم بأسماء جديدة، فقد حفظ التاريخ ولم يهتد به.

المشهد الثاني والخمسون

ولولا كلمة سبقت من ربك

الإمهال الذي يخطئ الغافل تفسيره

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾

يتأخر العذاب، فيظن المكذب أن التأخر عجز، أو أن الجريمة طويت بلا حساب. لكن الآية تكشف أن الإمهال ليس غفلة؛ إنما هو كلمة سبقت وأجل مسمى.

لو لم يقدر الله تأخير العذاب إلى مواعده، للزمهم جزاء ما صنعوا. لكنه سبحانه يمهل لحكمة: لتقوم الحجة، ويفتح باب التوبة، ويظهر ما في النفوس، وتكتمل السنن التي لا تراها العين العجلى.

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾.

كل شيء له وقت مكتوب، لا يقدمه هللنا ولا يؤخره غرورهم. وقد يكون تأخر العقوبة رحمةً بالمذنب ليعود، أو استدراجاً له إن أصر، أو امتحاناً للمؤمن حتى يتعلم ألا يقيس عدل الله بسرعة ما يرى.

صاحب الحق يتعجل أحياناً سقوط الباطل، فيكاد طول الطريق يثقله. فتقول له الآية: لا تظن أن المدة فراغ؛ للأجل اسم عند الله، وللکلمة موعد لا يتخلف.

ما عليك أن تعرف اليوم المحدد، بل أن تثبت حتى يأتي. فالذي قال لموسى: ﴿ثُمَّ جِئْتُ عَلَىٰ قَدَرٍ﴾، يجري نصره وعقابه على قدر كذلك.

المشهد الثالث والخمسون

فاصبر على ما يقولون

التسبيح بوصفه ملجأ القلب من أذى الكلمات

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾

من مشاهد القيامة وهلاك الأمم يعود الخطاب إلى قلب النبي ﷺ، إلى الكلمات التي يسمعها من المكذبين وتؤلمه.

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.

إن للكلمات أذى قد يفوق الجراح؛ ولا سيما حين تقع على قلب صادق جاء بالرحمة، فقبول بالسخرية والالتهام. كان النبي ﷺ يعلم صدقه، لكن تشويه الحق يوجع صاحبه، لا شكاً فيه، بل غيرَةً عليه وحزنًا على من يردونه.

لم يقل الله له: لن يؤلمك قولهم، بل قال: فاصبر. والصبر ليس موت الإحساس، وإنما منع الألم من أن يغيّر وجهتك، أو يدفعك إلى ردٍّ لا يليق برسالتك.

ثم لم يتركه يواجه القول بالصمت المجرد، بل فتح له باب التسبيح: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾.

حين يقولون فيك الباطل، نزّه ربك عن أن يضيعك. وحين يصفون رسالتك بما ليس فيها، املا قلبك بحقيقة من أرسلك. لا تجعل أصواتهم آخر ما يستقر في نفسك؛ اغسلها بالحمد.

وزع التسبيح على اليوم كله: قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها، ومن ساعات الليل، وأطراف النهار. كأن القلب يتعرض خلال الزمن لغبار متجدد، فيحتاج إلى مواقيت يعود فيها إلى صفائه.

الصباح يحتاج إلى ذكر حتى لا تدخل الدنيا بقلب فارغ.
والمساء يحتاج إلى ذكر حتى لا تحمل إلى ليلك أثقال اليوم.
والليل يحتاج إلى تسبيح يرد الوحشة أنسًا.
والنهار يحتاج إلى محطات تمنعك من الذوبان في السعي.

ثم تأتي الغاية الدافئة: ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾.

بدأت السورة بـ: ﴿مَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾،

وها هي تقترب من ختامها بـ: ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾.

بين نفي الشقاء ووعد الرضا يقف الصبر والتسبيح. فالرضا لا يولد دائمًا من تغير الظروف، بل من امتلاء القلب بالله حتى يرى الأشياء في ضوء حكمته.

قد يبقى المكذبون يقولون، لكن قلبك لا يعود مسكنًا لأقوالهم.
لقد صار فيه من الحمد ما هو أعلى صوتًا، ومن معرفة الله ما هو أبقي أثرًا.

المشهد الرابع والخمسون

ولا تمدن عينيك

حين يحرس الله بصر نبيه من فتنة الزينة

﴿وَلَا تَمْدَنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾

قد يصبر الإنسان على أذى خصمه، ثم يفتنه ما يراه في يده. ينظر إلى أهل الباطل وقد فُتحت لهم الدنيا، فينشأ في قلبه سؤال صامت: لماذا يملكون كل هذا وأنا أحمل الحق وأعاني؟

فجاء النهي: ﴿وَلَا تَمْدَنَّ عَيْنَيْكَ﴾.

لم يقل: لا تنظر نظرة عابرة، بل نهى عن مد العين؛ ذلك النظر الطويل الذي يتبعه تعلق القلب، وتبدأ معه المقارنة، ثم يتسرب السخط.

العين بوابة، وما تطيل الوقوف عليه قد يحتل وعيك. لذلك يحمي القرآن البصر لا من رؤية الأشياء وحدها، بل من النظر الذي يمنحها أكبر من حجمها.

﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

الزهرة جميلة، لكنها قصيرة العمر. تفتتك ألوانها، ثم تذبل سريعًا. ولم يسمها ثمرة، بل زهرة؛ لأن كثيرًا من زينة الدنيا منظرها أكبر من حقيقتها، ووعدا أكثر من عطائها.

﴿لِنُفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾.

ما تراه إكرامًا قد يكون امتحانًا. كثرة المال ليست شهادة رضا، وسعة النفوذ ليست دليل نجاة. ربما أعطي المرء ما يكشف به حقيقة شكره أو طغيانه.

إننا نرى ظاهر العطية، ولا نرى ثقل السؤال عنها. ننظر إلى اتساع البيت، ولا نرى ضيق القلب؛ إلى كثرة المال، ولا نرى الخوف الذي يحرسه؛ إلى الشهرة، ولا نرى الإنسان الذي فقد نفسه وهو يحافظ على صورته.

ثم أعاد الله الميزان: ﴿وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

رزق ربك يشمل القرآن، والإيمان، والسكينة، وما أعده لك في الآخرة، وما يمنحك من الحلال المبارك. هو خير في جوهره، وأبقى في أثره.

قال السحرة: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.
وهنا يقول الله: ﴿وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

كأن السورة تعلم القلب أن يسأل عن شيئين قبل أن يفتتن:
هل هذا خير؟ وهل يبقى؟ فكم من شيء يلمع وليس خيراً،
وكم من خير دنيوي لا يبقى؛ أما ما عند الله فجمع الحسنين.

المشهد الخامس والخمسون

وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها

البيت الذي تُضاء جدرانُه من محراب

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ
نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾

بعد أن نهاه عن مد العين إلى زينة الآخرين، أعاده إلى بيته:
لا تشغل قلبك بما في بيوتهم؛ أقم النور في بيتك.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾.

أعظم ما يهديه الإنسان إلى أهله ليس المال وحده ولا السمعة
ولا أسباب الراحة؛ بل أن يصل قلوبهم بالله. فالبيت الذي لا
يعرف الصلاة قد يجتمع فيه الأجساد وتبقى الأرواح متفرقة،
أما البيت الذي يُسمع فيه النداء وتلامس الجباه أرض
العبودية، ففيه باب مفتوح إلى السماء.

ولم يقل: أدِّ الصلاة وحدك، بل تحمّل مسؤولية التذكير،
والقدوة، والصبر على تربية الأهل. فأقرب الناس إليك أولى
الناس بنورك، ولا يليق بصاحب رسالة أن يضيء للبعيد
ويترك بيته في العتمة.

﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾.

زيادة المبنى توحى بزيادة المعنى: تكلف الصبر وثابر، لأن الصلاة تحتاج مجاهدة مستمرة. النفس تتثاقل، والدنيا تقاطع، والشيطان يوسوس، والمواقيت تعود كل يوم؛ فلا يكفي اندفاع لحظة.

الصلاة ليست عادة تُترك حتى يأتي المزاج، بل عهد يُحفظ في الرخاء والتعب، والحضور والفتور.

ثم عالج الله الخوف الذي يشغل الناس عن العبادة: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرِزُقُكَ﴾.

الله لا يحتاج إلى عبادتك، ولا يأخذ من رزقك؛ هو الذي يرزقك. فلا تجعل السعي للرزق حجةً لقطع صلتك بالرزاق.

ما أعجب الإنسان! يهجر الصلاة بحجة البحث عن رزق كتبه له من يدعو إلى الصلاة. كأنه يخشى أن تضيع عليه الدنيا إذا وقف دقائق بين يدي مالكها.

﴿نَحْنُ نَرِزُقُكَ﴾ لا تعني ترك العمل، بل تحرير القلب من عبادة العمل. اسع، لكن لا تتوهم أن يدك تخلق الرزق. خذ بالأسباب، لكن لا تقدمها على المسبب.

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾.

قد يبدو غير المتقي أسرع مكسبًا في مقطع قصير، لكن العاقبة ليست للمقطع؛ العاقبة لنهاية الطريق. والتقوى قد تُتعب صاحبها في أول الاختيار، لكنها تحفظه من تعب لا ينتهي.

المشهد السادس والخمسون

لولا يأتينا بآية من ربه

المكابر الذي يطلب دليلاً وهو محاط بالأدلة

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ
الْأُولَى﴾

يطلب المكذبون آية، وكان القرآن ليس آية، وكان ما جاء به من تصديق أصول الرسالات وكشف أنباء السابقين لا يكفي.

ليست كل مطالبة بالدليل بحثاً صادقاً عن الحق. قد يطلب الإنسان دليلاً جديداً ليؤجل موقفه من الدليل القائم. كلما جاءت آية قال: غيرها؛ لأنه لا يريد أن يصل، بل يريد أن يبقى في حركة السؤال إلى الأبد.

﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾؟

جاءهم القرآن مبيّناً ومصدقاً لما في الرسالات السابقة من أصول الهدى، وجاءهم نبي أُمّي يخبرهم من أنباء موسى وادم بما لم يتعلمه من بشر.

لكن المشكلة لم تكن فقر البرهان، بل موقف القلب. فرعون رأى الآيات كلها فكذب وأبى، وقوم محمد ﷺ يرون البيان ثم يطالبون بصورة أخرى.

من لا ينتفع بالنور في عينه قد لا تنفعه شمس ثانية.

المشهد السابع والخمسون

لولا أرسلت إلينا رسولاً

الحجة التي قطعها الله قبل أن تولد

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾

لو جاءهم العذاب قبل الرسول، لقالوا: لماذا لم ترسل إلينا من ينذرنا؟ كنا سنتبع آياتك لو جاءنا البيان.

فأرسل الله الرسول، وأنزل الكتاب، وأقام الحجة؛ فإذا الذين زعموا أنهم كانوا سيؤمنون يطلبون آية أخرى ويعرضون.

إن الإنسان قد يتخيل لنفسه فضيلة في ظرف لم يقع: لو عشت زمن النبي لاتبعته، ولو رأيت المعجزة لآمنت، ولو جاءتنى فرصة لفعلت. لكن حقيقة المرء تظهر في استجابته للحق الذي بين يديه الآن، لا في بطولاته المتخيلة.

من يرد القرآن اليوم لا تنفعه دعوى أنه كان سيتبع موسى بالأمس. فرب موسى هو الذي أنزل القرآن، والميزان واحد: هل يتواضع القلب للوحي حين يأتيه؟

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَنْزِلَ وَنَحْزِيَ﴾.

كان بإمكانهم اتباع الآيات اختيارًا قبل أن تأتي ساعة الانكشاف والإجبار. فالطاعة نافعة ما دام الغيب غيبًا، والباب مفتوحًا، والإيمان اختيارًا حرًا. أما حين ينزل العذاب، فلا يبقى للإذعان معنى الامتحان.

المشهد الثامن والخمسون

قل كل متربص

الخاتمة التي تضع الزمن حكماً بين الطريقين

﴿قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾

تأتي الخاتمة هادئة حاسمة، بعد كل الجدل والآيات والقصص: ﴿كُلُّ مُتَرَبِّصٍ﴾.

أنتم تنتظرون أن تخدم الدعوة أو يصيب الرسول ما تتمنون، والمؤمنون ينتظرون وعد الله. فتربصوا؛ فالزمن سيكشف ما تحاول الكلمات أن تخفيه.

ليس هذا شكاً في الحق، بل ثقة بمآله. فالحقيقة لا تحتاج أن تصرخ إلى الأبد كي تثبت نفسها؛ يكفي أن تمضي في طريقها، وستتساقط الأقنعة عند نهاياتها.

﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾.

ستعلمون في الدنيا حين يظهر الله دينه، وعند الموت حين تنكشف الحجب، ويوم القيامة حين تخشع الأصوات للرحمن. والمعرفة المؤجلة لا تنفع من رفض المعرفة التي كان يمكن أن تهديه.

﴿مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾.

الصراط السوي هو الطريق المستقيم المتوازن الذي لا التواء فيه؛ طريق العبودية لله، والاتباع لوجيه، والعدل مع خلقه. ليس طريق الاستعلاء الفرعوني، ولا الافتتان السامري، ولا النسيان الذي يصر صاحبه عليه.

﴿وَمَنْ اهْتَدَى﴾.

وهذه آخر كلمة في السورة: اهتدى.

بدأت سورة طه بالقرآن تذكرة لمن يخشى، وانتهت بالسؤال عن اهتدى. وبين المطلاع والختام سارت بنا في قصة الهداية كلها:

موسى يبحث في الصحراء عن هدى الطريق، فيجد الوحي.

وفرعون يرى الآيات فيأبى الهدى.
والسحرة يأتون لمحاربة الحق، فيهتدون في سجدة.
وبنو إسرائيل يعبرون البحر، ثم تزل أقدامهم عند العجل.
والسامري يبصر شيئاً، لكنه لا يهتدي بما أبصر.
وآدم ينسى، ثم يجتبيه ربه ويتوب عليه ويهدي.
ومحمد ﷺ يُعْطَى من لدن الله ذكراً، ويؤمر أن يصبر
ويسبح حتى يرضى.

فليست القضية أن ترى الآية فقط، بل أن تهتدي بها.
وليس الشأن أن تعرف الطريق، بل أن تسلكه حتى النهاية.
وليس الخطر أن تتعثر مرة، بل أن تجعل العثرة مقاماً
وترفض يد الرحمة.

خاتمة السورة

من الشقاء إلى الرضا

الرحلة التي تبدأ بنداء وتنتهي بهداية

افتتحت السورة أبوابها على قلب النبي ﷺ بهذه الرحمة: ﴿طه﴾
○ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ.

ثم أخذته إلى أخيه موسى، كأنها تقول له: انظر كيف أراعي رسلي.

رأيناه في ليلة باردة، يبحث عن قبس؛ فوجد عند النار نداء الاصطفاء.

ورأيناه يخلع نعليه في الوادي، كأنما يخلع عنه حياته القديمة كلها.

وسمعناه يقول: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾، فعرفنا أن أعظم الزاد للمهمات الكبيرة قلب يشرحه الله.

ورأيناه يدخل قصر فرعون بلا جيش، لكنه يحمل المعية: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾.

ورأينا خوفاً يمر في نفسه أمام السحر، فيأتيه التثبيت: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ﴾.

ورأينا السحرة يسجدون، لأن أهل الصنعة عرفوا أن

الحقيقة ليست حيلة.

ورأينا البحر يفتح في جسده اليابس طريقًا، لأن ما يسميه الإنسان مستحيلًا ليس إلا مخلوقًا ينتظر أمر الله.

ثم رأينا قومًا عبروا البحر ولم تعبر الوثنية من قلوبهم، فعلمنا أن المعجزات تفتح الأبواب، لكن التزكية وحدها تبني الإنسان.

ورأينا عجلًا له خوار، فعرفنا أن الضجيج قد يخدع من لم يزن الأشياء بميزان الوحي.

ورأينا آدم ينسى، ثم يتوب، فعرفنا أن الإنسان ليس مجموع سقطاته، بل الوجهة التي يختارها بعد أن يسقط.

سورة طه ليست قصة نبي واحد؛ إنها خريطة القلب في رحلته إلى الله.

في داخل كل إنسان وادٍ موحش ينتظر نداءً.

وفي داخله فرعون صغير يريد أن يستعلي.

وفي داخله ساحر يجمّل الوهم، وسامري يصوغ من الزينة عجلًا.

وفي داخله آدم ينسى، ثم يبكي ويعود.

وفي داخله موسى خائف يحتاج أن يسمع: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾.

وتعلمنا السورة أن العناية تسبق الوعي بها. قبل أن يدعو موسى، كان الله قد حفظه في التابوت. وقبل أن يعرف طريقه، كان يُصنع على عين الرعاية. وقبل أن يصل إلى الموعد، كانت سنوات مدين كلها تسوقه إليه.

ليس كل تأخير إهمالاً؛ فقد تأتي على قدر.
وليس كل بحر نهاية؛ فقد يكون طريقاً يبساً.
وليس كل خوف هزيمة؛ فقد يسكن قلب النبي ثم يمضي
بأمر ربه.

وليس كل سقوط خاتمة؛ فقد يتبع الغواية اجتباء وهداية.
وليس كل لمعان نعمة؛ فقد تكون زهرة الدنيا فتنة.
وليس كل صوت جواباً؛ فقد يكون خوار عجل.

وفي قلب السورة ينبض سر النجاة كله: الذكر.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾.
﴿وَلَا تَتَّبِعْ فِي ذِكْرِي﴾.
﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾.

بالذكر يعرف الإنسان حجمه الحقيقي، فلا يصير فرعون.
وبالذكر يرى نعم الله، فلا يبيعها بعجل.
وبالذكر يستحضر العهد، فلا يغلبه النسيان.

وبالذكر يصبر على أذى الناس، فلا تسكن أقوالهم قلبه.
وبالذكر تتسع نفسه من ضيق الحوادث إلى سعة الملكوت.
ثم تعطي السورة للنبي ﷺ - ولكل حامل رسالة من بعده -
برنامج النجاة من إنهاك الطريق:

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ... لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾.

الرضا ليس أن يعطيك الطريق كل ما رغبت، بل أن يعطيك
الله في الطريق قلبًا يعرفه. قد تبقى المشقة، لكنك لا تشقى؛
لأن الشقاء ليس في وجود الألم، بل في فقدان المعنى
والمعينة.

كم من إنسان يعيش في جنة الأشياء وقلبه في معيشة ضنك،
وكم من مؤمن تضيق عليه الأسباب وفي صدره وادٍ مقدس
يسمع فيه: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾.

وهكذا تُغلق سورة طه أبوابها، لكنها تترك في الروح نورًا
لا ينطفئ:

إذا خفت، فقل: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾.
وإذا ضعفت أدواتك، فانظر إلى ما في يمينك واستعن بالله.
وإذا كثرت حبال الباطل، فتذكر أن كيد الساحر لا يفلح.

وإذا أغلق البحر طريقك، فلا تحكم قبل أن يأتي الأمر.
 وإذا زللت، فلا تجعل الشيطان يحول خطأك إلى يأس؛ فقد
 تاب الله على آدم وهدى.
 وإذا أوجعتك أقوال الناس، فسبح بحمد ربك.
 وإذا أبهرتك زهرة الدنيا، فتذكر أن رزق ربك خير وأبقى.
 وإذا خشيت على رزقك، فاسمع: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾.
 وإذا التبس عليك الطريق، فعد إلى الذكر؛ فمن اتبع هدى
 الله فلا يضل ولا يشقى.

إنها السورة التي بدأت بمواساة النبي ﷺ، ثم بنت حول قلبه
 حصناً من قصص العناية، وختمت بوعد انكشاف الطريق:
 ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾.

سلام على موسى يوم خاف فدعاه ربه، ويوم دعا فشرح الله
 صدره، ويوم وقف أمام الطاغية، ويوم شق الله له البحر.

وصلى الله وسلم على محمد ﷺ، الذي نزل القرآن على قلبه
 لا ليشقى، بل ليهتدي به الخلق من ضيق الأرض إلى سعة
 الله، ومن وحشة الطريق إلى أنس النداء، ومن تعب الرسالة
 إلى مقام الرضا.

والحمد لله رب العالمين.